حسام الدين بشارة

أمير " جبل عامل "

الشيخ د . جعفر المهاجر

المقـــــدمـــــــة

هذا بحث غرضي منه التعريف بسيرة وأعمال رجل هو عندي من أحقّ الناس بحمل لقب البطل ، بالمعنى التاريخي للكلمة ، ومن حقّه أن يأخذ المحل المناسب في التاريخ الرسمي لـ " لبنان " لولا أن قد تنكّر له الجميع ، تبعاً لتنكّر المؤرخين السلطويين له . لا لسبب إلا لأنه لم يناسب أغراض المؤرخ المعاصر له . لأن هذا كان دائماً مُعلّق النفس بتسجيل أ دنى أحوال أهل السّلطة ، فلم يره بعينه العوراء ، مع أنه كان ملء الأعين في زمانه . ولم يناسب أغراض كتبة تاريخ " لبنان " الرسمي ، لأنه من خارج المنطقة التي أُخذ تاريخ الوطن من تاريخها الخاص . أعني أنه ليس من " جبل لبنان " . ونحن نعلم أنه بين هذا وذاك ضاع تاريخ كثير وتُنوسي أبطال . إذن فليس من الغريب أن يضيع ذكرالأمير حسام الدين بشارة في مَن ضاع . وفي مثل هذه الحال ، فإن ما ومَن يضيع هو دائماً أنبل وأطهر من ذلك الذي يُنشر ذكره ويحظى بالاعتراف ، بوصفه تاريخاً رسمياً . كما أنه أحق باسم (التاريخ) ، لأنه أصدق وأكثر إنسانيّة بكثير .

والبطل ، بالمعنى التاريخي للكلمة ، هو ذلك الإنسان الذي شق للناس طريقاً فسلكوه . إنه ذلك الإنسان الذي يُخلّف من بعده عالماً أفضل من الذي أتى إليه ، من وجهة نظره على الأقل . وقد نجح في ذلك لأنه أدرك مواصفات وخصوصيات اللحظة التاريخية التي يعيش فيها ومقتضياتها ، وأفلح في التماهي معها وفي العمل

بما تقتضيه ، وأيضاً في إغراء الناس على السير خلفه في الطريق الذي اختاره . فهو، إذن ، تآلف رائع من القدرة على تمييز الطريق الصحيح من بين الطرق الكثيرة المتشعّبة ، ومن القدرة على إغراء الناس على السير خلفه .

من هذا البيان سيكون في وسع القارئ الحصيف أن يُلمّ بمشكلة الباحث وهو يخوض غمار هذا البحث . فإذا كان المؤرخ المعاصر لموضوع البحث قد تنكّر له ، مهما تكن الأسباب ، فمن أين يتأتّى لكاتب التاريخ وللباحث اليوم أن يحصل على المادة الخبريّة التي يركّب منها بحثه عن حسام الدين ؟ هذا سؤال في الصميم . ومن حق القارئ أن يحصل على جواب عليه . لأن وثاقة البحث تتوقّف على وثاقة مصادره . ومن هنا درج أهل البحث على أن يُضمّنوا مقدّمات دراساتهم بياناً بالمصادر التي اعتمدوها في أبحاثهم ، مع بيان مواصفاتها التي تؤهلها للأخذ عنها باطمئنان كافٍ .

في الجواب نقول :

صحيح أن المؤرخين المعاصرين لحسام الدين قد تنكّروا له ولأخباره ، ولكنهم كانوا مضطرين أحياناً اضطراراً إلى ذكره ، وذلك حيث تتقاطع أحداث حياته مع أعمال أهل السلطة . فمع أن المؤرخين السلطويين يبذلون جهداً خارقاً في محاولة حصر الضوء بسادتهم ، لكي يكونوا هم وحدهم صانعي التاريخ ومالكيه ، فإن الحقيقة لابد أن تتغلّب في النهاية . وسيبدو أولئك الكبار يضطربون في هذه الحياة اضطراب عباد الله ، من صفته أنه اجتماعي ، أي أنه ذو علاقة بالآخرين . فهؤلاء لا بد لهم ممن يعمل لهم ، ولا بد

لهم ممن تقوم معه علاقة ما ، حتى لو كانت علاقة الجلاّد بالضحيّة ، وما إلى ذلك وغيره . وبهذه الوسيلة يخرج طرف من التاريخ السلطوي ، وليس أكثر من طرف ، من هيمنة الظل الطاغي لأصحاب السلطة . وبهذه الوسيلة يمكن لأبطال حقيقيين من صنف حسام الدين أن يخترقوا الحجر المحجور على التاريخ لحساب الكبار ، ويمكن لنا ، نحن أهل البحث ، المعلّقي النفس بالحقيقة ، ولا شئ غيرها ، أ ن نرفع جانباً من الستر الأسود المُسدل على التاريخ ، نختلس منه النظر إلى جنّتنا التي أُخرجنا منها . لا لسبب إلا لأن هناك مَن يزعم أن له ملء الحق في أن يملك المستقبل مثلما هو يملك الحاضر .

هكذا ، قد نلمح الأمير حسام الدين بشارة خبراً عابراً بسرعة بين طوفان الأخبار المعنيّة بصلاح الدين وبأعماله ، أ و بأهل بيته ، من أخيه الملك العادل ، أو أبنائه الكُثُر. في (الفيح القسّي في الفتح القدسي) للعماد الأصفهاني (519 – 597 هـ / 1125 – 12.. م) أحد أهم مَن سجّلوا عن معاينة وخُبر أخبار صلاح الدين وأعماله . و (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) للقاضي بهاء الدين بن شدّا د (ت :632 هـ /1234 م) . و (الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحيّة) لأبي شامة المقدسي (ت :665 هـ /1264 م) وهذا وإ ن لم يكن من معاصري حسام الدين ، لكن قيمة كتابه من اقتباساته الكثيرة عن ابن أبي طي الحلبي محيي الدين بن حميدة (ت :63. هـ /1232 م) في كتابه الثمين الضائع على سيرة صلاح الدين . و (مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب) لمحمد بن واصل (ت :697 هـ / 1297م) . واسم الكتاب يُغني عن التعريف به .

ومع ذلك ، فإن النفحة السلطويّة عند أُولئك تهون عند مَن خلف من بعدهم من معارف المؤرخين . ذلك أن المعاصرين ممن عرّفنا بأعمالهم ، قد تركوا لنا على الأقل نُتفاً من أخبار حسام الدين بمناسبة أو بأُخرى ، ممّا يتقاطع مع غرضهم في الأساس ، أي ذكر أخبار أهل السّلطة . أمّا خلفهم الصالح ، الذين أخذوا عنهم ولا ريب ، فقد استنكفوا عن ذكره بأدنى ما يكون الذكر . لا لسبب نراه إلا لأن النفحة السلطوية عند سلفهم قد أضافوا إليها هم مصفاة مذهبيّة ، لا يمر من ثقوبها الدقيقة إلا مَن يرضون عن مذهبه . بصرف النظر عن أهميّة دوره التاريخي. فابن الأثير في (الكامل) لا يأتي على ذكر حسام الدين إطلاقاً ، وكأنه ، بل إنه ، قد اتخذ قراراً بأن يمحو اسمه من سجلات التاريخ . مع أنه قد يأتي على ذكر غيره من الأمراء المحيطين بصلاح الدين عند الاقتضاء . وأظن أن حسام الدين هو الوحيد ، من بين كبار أمراء جيوش صلاح الدين ، الذي لم يُذكر إطلاقاً في (الكامل) . والأمر ، على كل حال ، يحتاج إلى تدقيق أكثر ، وهو برسم النقّاد . بل إ نه عندما لا يجد مفرّاً من ذكر حدث كان في قلبه ، نراه يرتكب جريمة الكذب والاختلاق كي يتجنّب ذكره . والكذب والاختلاق العاديان معصية ، ولكن حين يرتكبهما المؤرخ في سبيل تحريف الحقيقة التاريخية يكون جريمة . من ذلك ، مثلاً ، أنه عندما قصد الفرنج قلعة " تبنين" ، " وكانت بيد حسام الدين بشارة ، فنازلوها بفارسهم وراجلهم ، وأحدقوا بها وضايقوها " (ابن واصل : مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب : 3 / 75) و " قاتلوا مَن بها ، وجدّوا في القتال ، ونقبوها من جهاتها ... ولكن حُماة القلعة أصروا على الامتناع ، وقاتلوا قتال

مَن يحمي نفسه فحموها " (الكامل :12 /128) ومع أ ن الأمير حسام الدين كان يومها أمير القلعة ، وهو الذي قاد عمليّات الدفاع عنها ، بإجماع المؤرخين ، فإن ابن الأثير لا يأتي على ذكره إطلاقاً . ويعمل كل ما في وسعه لينسب الفضل في صمود القلعة إلى الملك العزيز بن صلاح الدين . ويحاول أ ن يودع في ذهن القارئ ، أ ن المدافعين عن القلعة كانوا خائري العزيمة ، واهني القوى ، يبحثون عن أدنى وسيلة للاستسلام ، تحفظ عليهم حياتهم .(المصدر نفسه) وهذا أيضاً خلاف إجماع المؤرخين. أما الصفدي فإنه لم يترجم له لا في (الوافي بالوفيات) و لا في (أعيان العصر وأعوان النصر) . وتجاهله الذهبي تماماً في كتابيه (سِيَر أعلام النبلاء) و (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) مع أنهما في كتبهما يترجمان لأمراء صلاح الدين الأقل شأناً بكثير من الأمير حسام الدين . خصوصاً الصفدي في كتابه (أعيان العصر وأعوان النصر) الذي يدل عنوانه على ما أ ولى من عناية خاصة لأرباب السيوف ، " أعوان النصر " وفقاً لعبارته .

هكذا ، فنحن في هذا البحث نستفيد من الثغرات التي اضطر المؤرخ السلطوي رغماً عنه إلى ارتكابها ، أمّا المؤرخ السلطوي ـ المذهبي فقد حرمنا عامداً أو قاصداً من كل عون . مع أنه ، بحكم بعده الزماني نسبياً ، كان أقدر على استشراف الأحداث وتقويم الرجال لو شاء . نقول هذا على سبيل بيان المشكلات التي عانى منها الباحث في هذا البحث العسر . وليعلم القارئ أنه إنما يجود من الموجود .

إ ن أهميّة دراسة الأمير بشارة وما له من دور في التاريخ ذات وجهين . فهو، من جهة ، بطل قاد " جبل عامل " في مرحلة أساسية جداً من تاريخه . أي أنه ممّن شق للناس طريقاً فسلكوه ، وفقاً للتعريف الذي ارتضيناه للبطل التاريخي فيما فات . وهو من أُخرى مؤسس لبيت من بيوت الزعامة والحكم في " جبل عامل " ، بسط سلطانه عليه ، أو على أجزاء منه مدة تناهز الثلاثة قرون . منذ أ واخر القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد ، حتى أواسط القرن التاسع / الخامس عشر. وكان البيت ، وليس مؤسسه فحسبُ ، ذا حضور في تاريخ الجبل خصوصاً وفي " لبنان " عموماً . وفي ظل حكمه حصلت النهضة العلميّة العامليّة الشهيرة ، انطلاقاً من " جزين " ، ومنه طار صيتها في الآفاق .

أخيراً ، هناك مَن يعتقد أن إيلاء الاهتمام لهذا النمط من الدراسات التاريخية قد يكون له تأثير ضار . أولاً ، لأنها ذات صبغة طائفيّة . فهي تاريخ يخصّ طائفة بعينها ، ولا يهمّ غيرها . وثانياً ، لأنها قد تُحيي ذكريات بغيضة ، من المصلحة نسيانها ، أو على الأقل تناسيها . لأنها تتعلّق بفترة حافلة بالفتن ونزاعات الأمراء الإقطاعيين ذات الصفة المذهبية . وما كان يُرتكب فيها من صنوف القسوة والتقتيل والنهب .

نقول تعليقاً على هذه الأطروحة :

هذه وجهة نظر لا تخلو من وجاهة . لكننا نقول ، هوذا تاريخنا كما هو . ووظيفة المؤرخ هي أن يصف وليس أن يُنشئ. والبديل عن المنهج الوصفي الصادق هو إما أ ن نُلغي تاريخنا ،

وإمـا أن نـزيّف تاريخاً لا علاقة له بالحقيقة . والغـريـب أ ن الحـلّ الثاني قـد اعـتُـمـد مـن قَـِبـل كُـتّـاب تاريخنـا الرسـمي ، عـلـى نطاق واســع ، دون أ ن يلقى اعـتراضاً جدّيـاً عملياً حتى الآن . يبقى أ ن نقول ، إ ن المؤرخ ، في نطاق منهجـه الوصفي ، ودون الخـروج عـليه ، يمكنه أ ن يقـدّم المُـركّـب التاريخي الـذي يتشـكّـل بيـن يديـه بصـورة إيجابية دائماً ، حتى وهـو يصـف أكثـر العهود شـراســة . إ ن أسـوأ الجرائم وأكثرهـا دنـاءة وأكثرها وحشـية يمكـن أن تكـون وسـيلة للاعـتبار ، ولـيـس بالضرورة للتحريـض . والمســألـة في النهايـة مســألة صياغــة " لقـد كـان في قصصهـم عـبـرة لأولــي الألبـاب " .

والحـمــد لله

بعلبك صباح الجمعة 27 شـوال 1425 هـ .
1. كـانـون الأول 2..4 م

خلفيّة تاريخيّة

عاش الأمير حسام الدين في فترة أبرز سماتها الحركة الصليبية . حيث كل الأحداث دارت من حول تلك السلسلة المتواصلة من الحملات العسكرية القادمة من " أوروبة " . وطبعاً أيضاً من حول ما أنتجته من كيانات سياسية ، قامت هنا وهناك على الأرض الإسلامية . بحيث أ نك لا تجد أمراً ممّا يعرض على حياة الناس في مختلف وجوهها ، إلا وهو على صلة ما ، قوية أ و أ قل قوة ، بذلك الهول الذي زحف على المنطقة ، حاملاً معه الموت والدمار . فأنزل بمنطقة واسعة تمتد من " أنطاكية " في الشمال إلى " عسقلان " في الجنوب شر خراب يمكن أن ينزل بمجتمع آمن وبمؤسساته . ودمّر حالة تنمويّة متقدّمة كانت قائمة ، خصوصاً في مدينة " طرابلس " وفي " طبريّة " وعشرات البلدات والقرى والمزارع التي كانت تطيف ببحيرتها العذبة . وأجهض تطوّراً سياسياً كان عالقاً في " طرابلس " . لو انه استمر لكان من الممكن أن يقدّم أنموذجاً جديداً للعلاقات السياسية ، يختلف تماماً عن كل ما كان معروفاً ومعمولاً به حتى ذلك الأوان . وأوجد حالة من البعثرة السكانية الهائلة ، قلبت المفهوم السكاني الذي كان قائماً في المنطقة : فمن البلدان ما غدا خراباً خالياً من السكان . ومن المدن ما أصبح معموراً بغرباء ، قدموا مع الحملات العسكرية أو كانوا في عدادها ، فاستوطنوها بعد أن قتلوا أهلها أو أخرجوهم من ديارهم . هذا ، فضلاً عن حركات سكانية ضخمة ، حصلت بسبب اضطرار الناس للانتقال لأماكن أكثر أمناً ، وهرباً من أخطار الحرب .

لكن من سُخرية الزمان بأهله ، أنه من قلب هذه الإحباطات والآلام نستطيع أ ن نرى نقطة مضيئة . فلولا الحركة الصليبية ، وما أنتجته من

بعثرة سكانية لَما دخل " جبل عامل " التاريخ في ذلك الأوان . ولَما وُجد بالتالي حسام الدين بشارة البطل . ولعله كان سيعيش حياته مزارعاً بسيطاً في بلدة من بلدات " الأردن " أ و " فلسطين " . وبالتالي لَما كان بحثنا هذا ممكناً .

ذلك أنه من الثابت ، ومن وجهة نظر الجغرافية البشرية ، أ ن " جبل عامل " قد نشأ سكانياً ، كإحدى نتائج البعثرة الهائلة التي أحدثتها الحرب في سكان " فلسطين " و " الأردن " . خصوصاً بعد المجزرة الفظيعة التي ارتكبها الفاتحون الصليبيون في " القدس " بعد احتلالها . وذهب ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين ، دونما تمييز بين امرأة وطفل وشيخ . فكان له صداه الهائل بين السكان كافة . وأخذ منهم الرعب ، فتركوا ديارهم ، وانطلقوا هاربين إلى أقرب الجبال إليهم . وما كان هناك إلا " جبل عامل " . فامتلأ الجبل فجأة بالسكان . ولقد كان من قبل شبه يباب . ومذ ذاك ضم الجبل الجماعات الشيعية التي كانت تنزل " طبريّة " وما يحيط ببحيرتها العذبة من قرى ومزارع ، ومن " عمّان " في " الأردن " ، و " نابلس " في " فلسطين " . وكان ذلك بمثابة الأساس والقاعدة له ولهويته المذهبية ، ثم لحضوره الثقافي ، اللذين دخل بهما التاريخ . فكأن الزمان كان ينسج دوراً لـ " جبل عامل " ، من شرطه هذا الجمع لشمل الشيعة بعد أن كانوا متفرقين في غير بلد من بلدان " الأردن " و " فلسطين " . ولا شك أنه لولا هذا التجمع لَما كان لـ " جبل عامل " المقوّمات الأساسيّة لبناء ذا تيته ا لثقافيّة ، التي كانت قاعدة النهضة .

ما أن استقر بأولئك النازحين المقام في أوطانهم الجديدة ، على هضاب " جبل عامل " الفقيرة ، حتى لحق بهم الصليبيون ، قادمين من

" فلسطين " ولا ريب . لكن هؤلاء ، لأول مرة في تاريخهم في المنطقة ، لم يعمدوا إلى ما درجوا عليه في ما احتلوه من قبل من بلدان ، أي إلى قتل السكان أو تهجيرهم ، بل استحيوهم . لا عن رحمة بهم ، بل لأنهم لم يعودوا بحاجة إلى المزيد من الأرض ليعمروها . وإنما بحاجة إلى من يعمل لهم في الأرض التي يحتلونها ، ويُنتج لهم الغذاء ، ويدفع لهم الضرائب .

يمكن وصف حياة سكان " جبل عامل " في هذه المرحلة المبكرة من تاريخه بالقول ، إن قاطنيه كانوا جماعات باينت أوطانها هرباً من ويلات الحرب . بعد أن اقتربت من أوطانها الأصليّة في " فلسطين " و" الأردن " باحتلال " القدس " . وما من ريب في أ ن الأنباء المرعبة عن المذبحة العامة الرهيبة التي ارتكبها المحتلون في هذه المدينة ، قد ولدت حالة رعب عام ، أدّت إلى نزوح جماعي للسكّان نحو " جبل عامل " . ودائماً كان الناس يقصدون الجبال طلباً للأمن في زمن الحروب ، لِما تمتاز به من حصانة طبيعية .

هذا التجمّع الظرفي للناس القادمين من مختلف البقاع ، الذين وجدوا أنفسهم فجأة في بيئة تختلف تمام الاختلاف عن تلك التي اعتادوا العيش فيها ، ـ كانوا مهدَّدين في أخصّ عناصر هويتهم الثقافية . ذلك أ ن انخلاع الجماعة من أرضها هو أمر أكبر بكثير ممّا قد يبدو ، لأنه سيتحوّل بسرعة إلى قطع مع الذاكرة الجماعيّة . فالوطن في عمقه التاريخي هو الوعاء الحقيقي للذاكرة . ثمة علاقة حرجة جداً بين الوطن ـ التاريخ ـ الذاكرة . إذا اختلّت ، وهذا لا يحصل إرادياً إلا بالانخلاع من الوطن ، تتهاوى كلها ، مثل بناء قد فقد أساسه ، فيسّاقط جزءً بعد جزء حتى يغدو أطلالا . وقد أدرك إبن الرومي بعبقريته جانباً من هذه العلاقة حيث قال :

وحبّب أوطان الرجال إليهم مآرب قضّاها الشباب هنالكا

هذا ، ثم أن وضع الاحتلال القاسي الذي فرضه الصليبيون على أولئك النازحين ، قد تركهم مقطوعين كلياً عن كل مصادر الثقافة . وهي مصادر لو انها توفّرت لهم ، لكان من الممكن أن تسد جانباً مذكوراً من الفراغ المعنوي الذي حصل بالنزوح وخسارة الوطن . لكن النظام الإقطاعي القاسي ، الذي حمله المحتلّون معهم من " أوروبة الغربية " ، وطبقوه بحذافيره في المناطق التي احتلوها ، ومنها " جبل عامل " ، قد جعل من حياة أولئك المساكين أشبه بحياة الأ قنان ، عبيد الأرض ، الذين يملكهم عملياً مالك الأرض . يعملون للمحتلين ، على أرض يبسط الغريب سلطانه عليها بحق الفتح . ثم يؤدّون له بعد ذلك جزية سنوية عن كل رأس . فضلاً عن مقاسمتهم إنتاجهم من الأرض . (إبن جُبير : الرحلة / 274 – 75) .

الفقرتان السابقتان تلخصان حياة الناس في " جبل عامل " تلخيصاً كاملاً أو شبه كامل ، في فترة استمرت ثمانية عقود تقريباً . أي منذ سقوط الجبل بيد المحتلّين ، حتى تحرير حصني " تبنين " و " أرنون " على يد صلاح الدين سنة 583 هـ / 1187 م . أ ثناء المدّة هذه لم يُذكَر لأهل ا لجبل أي عمل في مقاومة الاحتلال والمحتلين . اللهم إلا اشتراك رجّالة كثيرين من أهل الجبل في أعمال الدفاع عن مدينة " صور " المحاصّرة سنة 5.5 هـ / 1111 م (ذيل تاريخ دمشق / 178) . والظاهر أ ن هؤلاء قدموا من أطراف " جبل عامل " التي بقيت طاهرة من الاحتلال . وغني عن البيان ، أن غياب أي عمل من أعمال المقاومة للاحتلال طوال تلك المدّة الطويلة ، يعود إلى العجز الكامل لأهل الجبل عن المبادرة ، بسبب الاحتلال القاسي الذي رزح بكل ثقله عليهم وعلى وطنهم الجديد ، ثم بسبب غياب السند الخارجي لهم ، وحالة الشلل شبه الكامل الذي عانت

منه القوى الإسلامية حتى ظهور نور الدين محمود بن زنكي (541 – 569 هـ / 1146 – 1173 م) الذي كان قائداً عسكريا بارزاً ولا ريب . ولكنه كان ، مثل كل القادمين من أصول تركيّة ، يعاني من عصبيّة مذهبية عنيفة جداً ، بدت في الكثير من عناصر سياسته ومواقفه . الأمر الذي سدّ كل سُبُل التعاون بينه وبين الجماعات والقوى الشيعية في " مصر " و " الشام " . خلافاً لخليفته صلاح الدين ، كما سنرى فيما سيأتي إن شاء الله .

ذلك هو ، بأخصر بيان ، الوضع الذي تعامل معه الأمير حسام الدين في وطنه . وسيكون علينا فيما يلي أن نعرّف بسيرة الرجل .

الســـــــيـــرة

1 ـ المنبت والعائلـــة .

2 ـ الإنسـان ومرا بعه .

أ ـ أول ذكـر لحسـام الدين .

بـ ـ محـرّراً وأميراً علـى " جبل عامل " .

جـ ـ ..... وأميـراً علـى " عكّـا " .

د ـ فـي " تبنيـن " .

هـ ـ حسـام الدين في مأزق حرب الوراثة / النهاية .

1 – المنبت والعائلـة

يقول مصدران عامليّان معروفان ، أن تمام اسمه : " حسام الدين بن بشارة بن أسد الدين بن عامر بن مُهلهل بن سليمان بن أحمد العاملي ، من رهط عاملة بن سبأ " (محسن الأمين : " خطط جبل عامل " / 132 و محمد تقي الفقيه : " جبل عامل في التاريخ " / 73) . وكلاهما ينقل (بالواسطة ؟) عن " تاريخ ابن فتحون " . وهو كتاب في تاريخ " جبل عامل " مفقود من أسف . لكن النقولات الكثيرة والدقيقة عنه تشهد أنه كتاب غني بالمعلومات في تاريخ " جبل عامل " . والذي يغلب على الظن أن مصنفه ، ابن فتحون ، من أهل الجبل . لصعوبة أن نتصوّر أن يهتم أحد بتصنيف تاريخ له ، دون أن يكون من أهله ، في تلك الحقبة المبكّرة من نشأته .

وما من ريب أن الأخذ عمّن ينقل بالواسطة ليس بذاك في مقاييس البحث العلمي . لكن العارف بالنكبات التي نزلت بالتراث العلمي العاملي ، أثناء تاريخه الطويل الحافل بالفتن والغارات ، وأفقدته القسم الأكبر من مكتبته الأساسيّة ، وبالتالي ندرة المعلومات عنه ، خصوصاً عن تاريخه المبكّر ، لا يسعه أن يتنازل عن أي معلومة يجدها . خصوصاً حيث لا يرى سبباً للاختلاق أو التحريف . كأن يأتي الكلام في سياق محاولة إثبات أمر ما ممّا يُرغَب فيه . أو، على الأقل ، يبدو أن الكاتب يسعى إليه . والتأمل في هذا النص لا يدل أبداً على شئ من ذلك . بل إنه يبدو للناقد في غاية البراءة .

يُلفتنا في سلسلة النسب التي يعرضها النص ، أولاً ، هذه النكهة العربيّة الخالصة في أسماء آباء حسام الدين وأجداده ، وخصوصاً في

" عامر " و " مُهلهل " ، حيث يبدو للناقد بكامل الوضوح أنها تنتمي إلى بيئة ثقافيّة واحدة ، هي حصراً بيئة عربيّة أصيلة . وهذا أمر ليس من السهل تصوّر أنه نتيجة لعملية تزوير أو اختلاق ، مهما تكن دقيقة ومُتقنة، ومهما يكن مرتكبها عارفاً بأسرار الأسماء ، وأيضاً بمنازعها عند مختلف التشكيلات السكانيّة التي تنزل المنطقة . والأمر يغدو أكثر وضوحاً حين نتأمل في شرحه للنسبة نفسها ، حيث يتابع قائلاً : " من رهط عاملة بن سبأ " . التي نفهم منها أ ن البيت هو من بقايا قبيلة (عاملة) ، التي باينت منازلها في " اليمن " ، ونزلت " الجليل " ووهبته اسمها ، فصار يُعرف باسم " جبل عاملة " . ثم تنصّرت في مَن تنصّر (لخم وجُذام وغسّان) . لكنها وقعت في خطأ قاتل حين اشتركت إلى جانب الروم في قتال المسلمين في معركة " اليرموك " . ونزحت عن المنطقة بعد الهزيمة في مَن نزح ، باتجاه " آسية الصغرى " . ولكنها ، مثل كل حركة سكّانيّة كبرى ، لم تكن كاملة . بل خلّفت وراءها بعض مَن أصرّ على البقاء في وطنه ، لسبب أ و غيره . ومع الوقت دخل هؤلاء المُخلّفون في الإسلام . ومنهم بيت حسام الدين بشارة . وهذا المسار أيضاً من طبيعة الأمور ، وينسجم مع نفسه أولاً ، ثم مع ما نعرفه من تاريخ المنطقة وأهلها . ويكون بالتالي إمارة إضافيّة على صدق وأصالة النص المنقول عن ابن فتحون .

ما بقي من نص ابن فتحون يُعنى بذكر مساهمة أفراد عائلة حسام الدين في العمليّات العسكريّة ضد المحتلّين الصليبيين . لكن ما يذكره في هذا السياق لا يبدو للناقد على الدرجة نفسها من المتانة . فهو يقول أ ن مُهلهل ، والد جد حسام الدين ، كان قد شهد مع صلاح الدين الأيوبي فتح " القدس " . " وكان جدّه مُهلهل شهد مع الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب فتح بيت المقدس سنة 583 " (خطط / نفسه). لكننا نعرف أن حسام

الدين كان في السنة 582 هـ / 1186 م ضابطاً في عسكر صلاح الدين (النوادر السلطانيّة / 73) ، أي أنه يجب أ ن يكون في العشرينات من عمره على الأقل . فكم يجب أن يكون عمر والد جدّه في السنة التالية ؟ وفقاً للمعدّل الوسطي ، المعمول به بين كُتّاب السيرة للفارق بين الأجيال عند غياب النص ، وهو خمس وعشرون سنة ، يجب أن يكون عمر والد الجد في حدود التسعينات عند ما فُتحت " القدس " . والسؤال الآن : كيف يتأتّى لرجل في هذه السنّ العالية أن يشترك في قتال . إلا أ ن يُقال أن شهوده الفتح لا يعني بالضرورة اشتراكه في القتال . وإنما كان هناك على رأس أبناء بيته أو عشيرته . ويمكن أن يُعتبر مؤيداً لهذا التوجيه ، أن النص نفسه يتابع قائلاً : " إن أسد الدين بن عامر بن مُهلهل ، والد بشارة ، صحب الملك العادل هو وأولاده الخمسة " (أيضاً) . والمعني بـ " الملك العادل " سيف الدين أحمد ، أخو صلاح الدين . وهذه هي الإشارة الوحيدة في كافة المصادر ، في حدود ما بحثنا ، إلى اشتراك بيت حسام الدين في أعمال القتال ضد الصليبيين . وليس هذا عندنا بالأمر المُستغرَب . فنحن نعرف أن حسام الدين نفسه لم يكن ليفوز بنظرة من مؤرخي السلطة ، لولا أنه قاتل إلى جانبها ، وتولّى لها ، ثم أخيراً قاتلته وقاتلها .

هو ذا ما يعطينا إياه هذان المصدران العامليّان الوحيدان عن منبت الأميرحسام الدين وعائلته . وهما ، كما عرفنا ، يرجعان إلى مصدر واحد . لكنه يضرب في أعماق التاريخ العاملي . لذلك فإننا اعتصرناه حتى آخر قطرة ، ابتغاء استخراج خبيئه . فهو كنز الفقير المُعنّى الذي ليس له غيره .

لكن المصادر غير الشيعيّة كافة ، وهي كلها مصادر معاصرة

لـه ، لا تذكـر لحسـام الديـن ، علـى كثـرة ما تذكـره ، إلا رتبته " الأميـر" ، ولقبـه " حسـام الديـن " ، واسـمه الأول " بشـارة " . دون أن تأتـي علـى اسم عائلتـه أ و عشـيرتـه ، ودون أ ن تنسـبه نسـبة مـا . كمـا أننـا لـم نعثر لـه ، بعـد البحث والتنقيب ، علـى ترجمـة مستقلّـة ، شـأن غيـره من أُمـراء ذلك العصـر ، الذين كانوا نجوم الأوان ، يعرفهم القاصي والداني . كما هـو شـأن كـل القـادة العسـكريين المنتصرين في زمـن الحـرب . ولذلـك لـم تخـلُ مـن ذكرهـم كُتُـب التراجم و السِّيَـر المعاصرة لهـم ، أو القريبة من عـصرهـم . و ما من ريب في أن هـذا التجاهـل العام الشـامل لاعلاقـة لـه بضآلة مكانته . فنحـن سـنعـرف أنـه كـان يتمتّع بمكانـة عالية جـداً بيـن أُمـراء صـلاح الديـن الكثيريـن . ثم لا ريـب أيضـاً أ ن ذلـك التجاهـل ليـس بدون سـبب ، ولـيـس موقفـاً شـخصياً . وهـذه الملاحظة بوجهيهـا تحمـل المتأمـل علـى الظـن ظنـاً يتاخـم اليقيـن ، بأن السـبب يتصـل بالكوابح ذا ت الصفـة العامـة ، أي غيـر الشـخصيّة . وعـلى رأس ذلـك العصبيّة المذهبيّة ، التي كانـت دائمـاً السـبب الأقـوى عنـد ذلـك القبيـل مـن المصنفين ، لتحـدّد لهـم درجـة الاهتمـام التي يمنحونها لمـن يترجمـون لهـم .

تلك هي القاعـدة التي تسـتقـر عـليها سـيرة الأمير حسـام الدين . وقـد عـرفنـا أ ن الرجـل ينتمي إلى بيـت عـربـي أ صيـل ، يرتـفـع إلى قبيلة يمانيّـة الأصـول ، هي (عاملـة) التي يُنسـب لها " جبـل عامـل " . وهـذه نتيجة في غاية الأهميّة ، لأنهـا تبيّن عُمق جـذور صاحب السـيرة في الأرض العامليّة ، وتضعنـا في عالَـم الحوافـز المحـرّكـة لـه . فالوطـن بالنسـبة للمـرء هـو فـي نهايـة كل تحليل ذاكرتـه . وكلمـا كانـت الذاكـرة ، فرديّـة أو جماعيّة ، أكثـر عـمـقـاً ، كلمـا كان الانتمـاء أمضى وأقوى . فكيـف وهـو ينتمي إلـى الـذيـن أسّسـوا وانغـرسـوا عـميقـاً فـي الأرض العامليّـة . بحيـث نشـأت حـالـة مـن التوحّـد بين تاريخ الأرض وتاريخ أسـلافه .

كما أننا عرفنا من القاعدة نفسها أن بيته ، منذ جدّه على الأقل ، وربما منذ والد جدّه ، مُعرق في الجهاد . وكلا هاتين الملاحظتين يكمل الآخَر . فارتباطه المتين بوطنه ووطن أجداده من قبله يحفزه إلى الدفاع عنه بكل ما يملك ، وإلى العمل على تحريره من الاحتلال . وليحتفظ القارئ بهذه الملاحظة في ذهنه ، لعلاقتها بما سيأتي إن شاء الله .

---

2 ـ الإنسـان ومرابعه

ما مـن ذكـر لمكان وتاريخ مولـد حسـام الديـن . ولا بِـدع في ذلك ، فهـذا غالبـاً شـأن الكبـار الذيـن يرتفعـون من الـغُمـار ، لا يُذكـرون إلا بعـد أن يصبحوا مـلء الأعـيـن . وإذ ذاك تكون سـيرتهم الأُولـى قـد ضاعـت أ و تتوسـيـت .

ـ أول ذكـر لحسام الدين

إن أ ول ذكـر له ، وقعنا عـليه لـدى القاضي بهاء الديـن بـن شـدّاد ، مؤرّخ صلاح الديـن وكاتب سـيرته ، في كتابه (النوادر السـلطانيّة والمحاسن اليوسـفيّة / 73) . وهـو يـرجـع إلـى يـوم الجمعة 8 جُمـادى الآخـرة سـنـة 582 هـ / 27 أيلول 1186 م . ونفهـم منه أنـه في ذلـك الأوا ن كـان حسـام الديـن بشـارة ضابطـاً في عسـكر صـلاح الديـن وموضـع ثقـته . ولهذا الذكر قصّـة يحسّـن بنـا روايتهـا ، لعلاقتها بما نعالجه .

فـقُبيل ذلـك التاريـخ ، مرض السـلطان مرضـاً شـديداً ، أشـرف منه عـلى الموت . فكتب وصيّة فيهـا ، أن تكون " مصـر" لابنه الصغيـر العزيـز عثمـان ، بكفالة ابن عمّه تقي الديـن عمـر ، و" الشـام " لابنـه الملك الأفضل، بكفالة عمّه الملك العادل ، صاحب " حلب " آنذاك . وكان الأمير سـليمان بن جُنـدُر في " حلب " ، فلقي السـلطان وقال له : " بأي رأي كنت تظن أن تنفذ وصيتـك . كأنـك كنـت خارجـاً إلى الصـيـد ، ثم تعـود فـلا يخالفونـك . أمـا تسـتحي أن يكـون الطائـر أهـدى منك إلى المصلحة ؟ " . فقال صلاح الديـن وهـو يضحـك : " وكيف ذلـك ؟ " فقال ابن جُـنـدُر : " إذا أراد الطائـر أ ن يعمـل عشـاً لفـراخـه قصـد أعـالي الشـجـر ليحمـي فراخـه . وأ نـت سـلّمـت

الحصون إلى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض . هذه حلب ، وهي أُم البلاد ، بيد أخيك . وحماة بيد الأفضل . وحمص بيد ابن عمّك . وابنك الأفضل مع تقي الدين ابن عمّك بمصر يُخرجه متى شاء . وابنك الآخَر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أ راد " . فقال صلاح الدين : " صدقت . فاكتم هذا الأمر " . (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : 6 / 3. – 31) . وعلى الأثر أجرى تعديلات أساسيّة على المناصب . ومن ذلك أنه جعل " حلب " لولده الظاهر أبو الفتح غازي (ت : 613 هـ / 1216 م) الذي عُرف بميله إلى التشيّع . وعيّن معه حسام الدين شُحنة ، أي رئيساً للشّرطة . والظاهر أن اختيار " حلب " الشيعيّة للأمير الشيعي مع رئيس شرطة من المذهب نفسه ، كان أمراً مقصوداً للسلطان ، الذي عُرف ببراعته السياسيّة وبتسامحه في الشأن المذهبي . وغني عن البيان أن هذا الوضع المُنسجم ، سيجعل موقع الظاهر أمتن في ولايته الجديدة ، وسيُطمئن أباه القلق على مستقبله .

ولقد كنا قدمنا لهذا الكلام بالقول ، إنه أول ذكر لحسام الدين وقعنا عليه . وهو كلام صحيح بالنسبة لسعينا . ولكنه لا يجب أن يكون بالدرجة نفسها من حيث الصحة بالنسبة لوا قع الأمر . لذلك فإننا سنُثنّي بإيراد الملاحظتين التاليتين :

ـ الأولى : المصدر الوحيد الذي عثرنا فيه على هذه المعلومة هو (النوادر السلطانيّة) لابن شدّاد . ونحن نعرف من سيرة هذا أن بدء صلته بصلاح الدين كانت في السنة 584 هـ / 1188 م . أي بعد تلك الواقعة بسنتين تقريباً . وعلى هذا فيمكن أن يكون قد فاته شئ من أخبار حسام الدين ، لم يذكره لعدم اطلاعه عليه .

ـ الثانية : عرفنا أنه في ذلك التاريخ كان حسام الدين برتبة

ضابط في عسكر صلاح الدين ، كما نقول اليوم . وإ نّا وإ ن كنّا لا نملك معرفة وافية بالتقاليد العسكريّة التي كانت مُتّبعة في ذلك الأوان ، خصوصاً ما يتصل منها بالمراتب القياديّة وتسلسل الأمر ، الذي لابد أنه كان قائماً بصيغة ما ، وإن كنّا لا نعرفها . لذلك فإننا نُرجّح أنه لم يحصل على تلك الرتبة إلا بعد أ ن أ ثبت جدارته في العمل العسكري عملياً . وعليه فهاهنا نقطة مُعتمة تماماً في تاريخ علاقة حسام الدين بالسلطان . التي نُرجّح أنها ترجع إلى ما قبل ذلك التاريخ . خصوصاً وأنها تأصيل عن علاقة أبيه ، وربما وجدّه ، من قبله . وفقاً لما حرّرناه في القسم السابق .

أخيراً ، وقبل أن نغادر هذه المرحلة من البحث ، لا بدّ لنا من أن نُشير إلى أن ابن شدّاد ذكر حسام الدين هنا بلقبه واسمه مُجرّداً ، هكذا : " حسام الدين بشارة " . دون أن يُحلّيه بلقب الأمير ، كما درج على ذلك هو وغيره فيما بعد . ممّا يدلّ على أنه لم يكن قد حظي به بعد . وسنقف فيما يلي على دلالة هذا اللقب ومعناه .

بتاريخ 25 ربيع الآخر 583 هـ / 4 تموز 1187 م ، أي بعد عشرة أشهر ونصف تقريباً من ذلك التاريخ ، الذي قلنا أنه أول ذكر لحسام الدين ، وقعت معركة " حطين " الشهيرة . ولا ذكر له في هذه الوقعة ، التي نعرف أ ن صلاح الدين قد حشد لها كل ما تحت يده من عسكر وموارد . الأمر الذي يبعثنا على أقصى الاستغرا ب . وسنقف عند هذه النقطة الوقفة المناسبة في فصل خاص بها فيما يلي .

ـ مُحرّراً وأميراً على جبل عامل

في شهر رمضان 583 هـ / كانون الأول 1187 م حرّرت فرقة من المسلمين قلعة " هونين " ، في أقصى شرق " جبل عامل " ، المُشرف

على " سهل الحولة " وبحيرته . " وهي من أحصن القلاع وأمنعها " (ابن واصل : مُفرّج الكروب في أخبار بني أيوب : 2 / 247) . وكان حصن " تبنين " قد حُرِّر قبلها بقليل . لكن وجه الأهميّة في خبر تحرير قلعة " هونين " ، أنه الوحيد من بين الوقائع الكثيرة التي نشبت في تلك الفترة ، الذي يرِد فيه النص على أ ن حسام الدين قد شهده (جبل عامل في التاريخ / 73 ، نقلاً عن تاريخ ا بن فتحون) . ومن الثابت أن صلاح الدين لم يشهد هذه الوقعة بنفسه ، وإنما تولّتها " فرقة من جيشه " دون تعيين (سعيد عاشور : الحركة الصليبيّة : 828) . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : أي فرقة ؟ أ و بالأحرى : فرقة مَن ؟

من الثابت والمعلوم عند المعنيين ، أ ن الجيش الكبير الذي كان يقوده صلاح الدين ، كان تجمّعاً ، أ و إن شئت قلت تحالفاً ، لعدد كبير من التجمّعات العسكريّة ، القادمة من مختلف الأنحاء : أكراد من " ديار بكر" وشمال " العراق " و " الشام " ، و أتراك من " آسية الوسطى " . ومن هنا جاء ذلك الحشد من الأسماء الكرديّة و التركيّة بين أُمرائه : جُندُر ، كَرجي ، سَنقَر ، إياز ، يازكوج ، جُوردَيك ، جهاركَس ، سياروخ، قراقوش ، دلدرم .... الخ. في مقابل الغياب التام للأسماء العربيّة . مع استثناء فريد هو اسم حسام الدين بشارة . وكان كل تجمّع منها تابع لأميره ، يتلقّى الأوامر في ساحات القتال منه . فيتقدّم إلى المعركة أ و ينسحب منها ، تبعاً للأوامر الصادرة إليه من أميره فقط . كما كان يُنسَب إليه ، ويُنظّم أثناء الاستعداد للقتال تبعاً لهذه الصفة ، فيُقال : عسكر فلان. ولكن القرار الاستراتيجي بالحرب والسّلم كان يصدر عن مجلس سياسي ـ عسكري يرأسه عادةً صلاح الدين بنفسه ، وأحياناً أخوه الملك العادل. ويحضره الأمراء .

الغرض من إيراد هذه الفذلكة التاريخيّة ، أن نمهّد للجواب على السؤال الذي ختمنا بطرحه الفقرة ما قبل الأخيرة : فرقة مَن ؟

وإنّا لنرجو من هذا التمهيد ، أول ما نرجو ، أن يُسوّغ السؤال ، بالصيغة التي طرحناها فيه . ذلك أ ن هذه الصيغة قائمة على فرض أ ن الفرقة يجب أ ن تكون منسوبة إلى أحد . فالآن ، وبعد هذا التمهيد ، غدا القارئ عارفاً بوجه ذلك .

فمَن ذاك الذي كان صاحب (أمير ؟) تلك الفرقة ؟

ما من نص خاص على ذلك ، في كل المصادر التي تذكر واقعة تحرير حصن " هونين " . لكن ابن فتحون في تاريخه يُشير من طرف إلى الجواب . ذلك حيث يقول ، إنه على أثر تحرير الحصن ولّى صلاحُ الدين حسامَ الدين بشارة على خيط " بانياس " . و " خيط بانياس " كان يعني في ذلك الأوان بلدة " بانياس " نفسها وحصون " هونين " و " تبنن " و " الشقيف " . هكذا يُقال . (ابن قاضي شُهبة : تاريخ / حوادث السنة 586 و النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس : 1 / 496) لكن هذا التحديد ينظر إلى المواقع العسكريّة ، ولا يلتفت إلى المعالم المدنيّة الكثيرة التي كانت قائمة في " جبل عامل " . ولا دلالة خاصة في ذلك ، سوى أن المؤرخ يُركّز كل اهتمامه على الشأن العسكري ، وما يتصل به من مواقع . وذلك أمر متوقّع منه نظراً لمسار الأحداث آنذاك . حيث كان كل شئ يدور من حول المعارك المصيريّة العالقة ، والمعالم العسكرية التي تتصل بها .

نخرج من هذا التحليل بعدّة نتائج دفعة واحدة :

ـ الأولى : إن حسام الدين كان في ذلك التاريخ قد غدا صاحب عسكر ، كما كان يُقال . أي أميراً من الأمراء المحيطين بصلاح الدين ،

لـه عسـكر تابـع لـه . لا بـد أن يكون مـن أهل " جبـل عامـل " ، لِمـا نعلمـه من أن تكويـن التجمعات العسـكريّة كان يقـوم إمّـا عـلى الرابطة الأقـواميّـة أو الرابطة المناطقيّة . والأمر الثاني هـو الوحيد الممكن في مثال حسـام الدين.

ـ الثانيـة : أن الفـرقـة التي حـرّرت حصـن " هونيـن " هـي فرقـة حسـام الديـن . ذلـك أنه مـن المُستبعـد جـداً أ ن يكـون شـرف تحـريره لأميـر آخَـر ، ثـم يـفـوز هـو، دون غـيـره ، بالجـائـزة . أي بـالـولايـة عـلى " خـيط بانياس " . والعارف بدقّـة صلاح الديـن فـي سياسـة أمـراء عـسـكره لـن يجـد أدنـى صعوبـة فـي قبـول هـذه النتيجة .

ـ الثالثة : أنه فـي شـهر رمضان 583 هـ / كانون الأول 1187 م، وهـو تاريخ تحريـر حصـن " هونيـن " ، أو بُعيـده بقـليل ، غـدا حسـام الديـن أميـراً عـلى " جبـل عامـل " . أي أعاليه الشـرقـيّة . امّـا أسافـله الغربيّـة ، المسـامتة لمدينـة " صـور " وسـواحلها فقد كانـت ما تزال تحـت الاحتلال .

ـ الرابعة : إذا نحـن أخذنـا بمُجمل ما يعنيه " خيط بانياس " ، كمـا حدّدته المصادر أعلاه ، فهـذا يعني أن قلعة " شـقيف أرنـون " المنيعة كانـت مـن جملـة إقطـاع حسـام الـديـن . لكننـا نعـرف أ ن هـذه القـلعـة لـم تكـن قـد تحـرّرت بعـد بتاريخ تأميـره . فهـذا يوحـي بأنـه كـان مُكلّفـاً بالتضييق عليها وتحريرها . ومثل هذا كان من سياسة صلاح الدين . وسـنعرف فيما يلي ، أنـه في مرحلة تالية كان من مهـام حسـام الدين ، بوصفه أميراً عـلى " جبـل عامل " ، التضييـق عـلى " صـور " . يؤيـد ذلـك أنـه عـندما حاصـر صـلاح الديـن " شقيف أرنون " بعـد هـذا ، وأتـاه الخـبـر بـأن جمـوع الأعـداء تـتجـه صـوب " عـكـا " لمحاصرتهـا ، اسـتدعـى " بعـض القـوّات الإسـلامية مـن الجليل " لكي تحـلّ محـلّ قواته ، التي اضطـرت إلى الانسـحاب لنجدة المدينة

(الحركة الصليبية / 855) . وما " الجليل " إلا " جبل عامل " في لغة أكثر مؤرخي ذلك الأوان ، وما من قوّات في " جبل عامل " آنذاك إلا قوّات حسام الدين . لكن القلعة استعصت عليه لمناعتها . بحيث أنها كانت آخر القلاع التي بقيت بيد الصليبيين في المنطقة . وأيضاً بسبب أنها كانت بيد أحد دُهاة أمرائهم في ذلك الأوان ، وهو رينو صاحب " صيدا " سابقاً ، الذي احتمى بها عقيب استيلاء المسلمين على المدينة . ممّا استدعى تصدّي صلاح الدين بنفسه لفتحها . فأتاه رينو في معسكره المحاصِر للقلعة ، وعرض عليه التسليم ، بشرط أ ن يسمح له بسكنى " دمشق " ، لأنه يخشى انتقام الصليبيين . وقد وصف ابن شدّاد حضوره فجأة على باب خيمة السلطان ، الذي أمر بإدخاله واحترمه وأكرمه . وكان من دُهاة الإفرنج وعقلائهم . كما كان يُحسن العربيّة ويتكلّم بها . وبالنتيجة ضر ب معه موعداً لتسليم القلعة (النوادر السلطانية / 121 – 22) . لكن الحامية أبت التسليم عندما أ زف الموعد . فتأخّر تسليمها إلى يوم الأحد 15 ربيع الأول 586 هـ / نيسان 119. (العماد الإصفهاني : الفيح القسّي والفتح القدسي / 359) . ولا ذكر ينص على أن استسلامها كان لصلاح الدين أ و لغيره . ولو كان له ، لرأيت المؤرخين يهرعون إلى التنويه بهذا الفتح المبين بكل لسان . فسكوتهم هذا السكوت المُريب يترك الاحتمال يتوجه إلى حسام الدين دون غيره .

... وأميراً على " عكا "

في أوائل السنة 585 هـ / أوائل شباط 1189 م ولّى صلاحُ الدين حسامَ الدين على " عكّا " (الفيح القسّي / 276 و النوادر السلطانيّة / 96 و النجوم الزاهرة : 6 / 1.9) . وهذه خطوة ذات مغزى ، لا بد لنا من الوقوف عنده . ويستدعي أن نضعها في إطارها التاريخي .

فعلى أثر هزيمة الصليبيين في " حطّين " ، استسلمت " عكّا " للمسلمين دون قتال بتاريخ 1 جُمادى الأولى 583 هـ / أيلول 1187 م (ابن الأثير: الكامل : 11 / 539) . وباستسلامها خسر الصليبيون الميناء الرئيس الذي يصِلهم بأوطانهم وراء البحار ، ويتلقّون عبره الإمدادات بالرجال والسلاح والمؤن . فضلاً عن الحركة التجاريّة التي كانت تتمّ عبر الميناء استيراداً وتصديراً ، وتعود عليهم بمكاسب كبيرة .

كان لمسلسل الأحداث الذي تلا هزيمة " حطّين " ، وعلى رأسها طبعاً ، تحرير " القدس " ، صدىً عنيفاً في الغرب الأوروبي . وانطلقت الدعوات إلى الثأر ، تولاّها البابا جريجوري الثامن ، الذي بعث برسائل إلى ملكي " فرنسا " و " إنكلترا " وإلى إمبراطور " ألمانيا " يحثّهم فيها على الحشد لردّ قبر المسيح . وبالنتيجة تشكّلت الحملة الصليبية الثالثة ، التي قاد القسم الأوفر منها الإمبراطورالألماني العجوز فريدريك باربروسّا. الذي اتجه صوب الشرق على رأس جيش لجِب ، من المؤرخين مَن قدّره بمائة ألف مقاتل ، سالكاً الطريق البرّي ، عبر أ راضي الإمبراطورية البيزنطيّة . كما أبحر ملكا " فرنسا " و " إنكلترا " بجيوشهم ، ونزلوا " صقليّة " بانتظار انقضاء فصل الشتاء .

أثار هذا الحشد العسكري الهائل حالة من الرعب والفزع في البلاد الإسلامية . لضخامة الحشد أولاً ، ثم لأنه يضع المنطقة الشاميّة بأكملها بين فكّي كمّاشة : الألمان من الشمال ، والفرنسيون والإنكليز من الغرب . وهذا وضع لا قِبل للجيوش الإسلامية بمقابلته . ممّا ولّد حالة من اليأس . ومن الآثار الباقية لتلك الحالة قول ابن الأثير ، وهو يصِف اقتراب الألمان : " لمّا وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان ، أيقنّا أ نه ليس لنا بالشام مقام " (حوادث السنة / 586) . أمّا أبو الفداء فقد قال ، وهو يصِف

حـال المسـلميـن آنـذاك : " أيسـوا مـن الشـام بالكُليّـة " (المختصـر / حـوادث السـنة نفسها) .

لكـن حـدثاً أتى مـن خارج كـل التوقّعـات قلـب الموقـف رأسـاً عـلى عـقب . ذلـك أن الإمبراطور الألماني مات غريقـاً في نهـر صـغيـر في منطقة " كيليكية " . فأفلـت زمام الجيـش الكبير وتفرّق . حتى أن عدداً مـن أمرائه قـفِل عائـداً أدراجه إلى بلاده . وتابع الباقون طريقهم إلى " إنطاكية " ومنهـا اتخـذوا طريقهم إلى " عكـا " .

كل ذلـك جرى في الوقـت الذي كـان فيـه لوزجنان ، أمير " صـور " السـابق ، الـذي أُسـر في " حطّين " وأطلقه صلاح الدين ، يجمع فلول فرسان الصليبيين ويتقـدّم بهـم صـوب " عكّـا " ، قاصـداً هـو الآخَـر ، اسـتعادتها مـن المسـلمين . والجـديـر بالذكـر هنـا أن صـــلاح الـديـن لـم يُـدرك مقصـــد كـل هؤلاء إلا بعـد فوات الأوان . بدليـل أ نه في الوقـت الذي كانـت جيوش العدو تقترب من المدينة ، كان هـو مشـغولاً بمنازلة قلعة " شـقيف أرنـون " ، كـمـا ذكـرنا قبل قليـل .

ذلـك هـو الإطـار العام لـواقعـة تأميـر حسـام الـديـن عـلى " عكـا " ، بيّنـاه للقارئ كـي يعينه عـلى فهـم مغـزى هـذه الخطـوة . ويقـول المـؤرخـون أن صـلاح الـديـن عـزم عـلى تهـد يـم " عـكّـا " ، كـي لا يسـتفيـد العـدو مـن تحصيناتها . مثلمـا هـدم أسـوار " طبريّة " و " صيـدا " و " جُبيـل " ، وهـدم مُـدن " يافـا " و " أرسـوف " و " قيسـاريّة " ، في ظـل الأراجيـف بقدوم تلك الحمـلات . لكنه عـدل عن رأيـه ، بعـد أن عارض عـدد من الأمـراء ، بحجّة أن تهـديـم المدينة لـن يمنـع العـدو من الاسـتفادة من مينائها الكبيـر .

وغنـي عـن البيـان أن تأميـر حسـام الديـن عـلى المدينة ، دون غيـره مـن عـشـرات الأمـراء الكبـار ، في ذلـك الظـرف العسـير والأخطـار الجّديّـة المقبلـة ، ـ لدليـل لا يقبـل الطعـن عـلى أنـه كـان محـل اعـتمـاد في المواقـف الصعبة ، التي تحتاج إلى شـجاعة الرجال وحكمتهم . لا بـل هـو أيضاً شهادة لعسـكره العاملي بأنه كـان موضـع الثقة ، ويمكن الاتكال عليه في المُلمّـات . ومـن هـنا نفهـم مغـزى عبارة قالها العمـاد الإصفهاني ، وهـو يصِـف التجمّـع العسـكري الإسـلامي للدفاع عـن " عكّـا " : " .... والأمير بشـارة صاحب بانياس ، وهـو الذي لا يرجـو لقاءه إلا مَـن فيه بـان اليـاس " (الفيح القسّـي / 442) . ولا ريب في أن كلمة " لقاءه" لتعنى لقاءه شـخصياً .

تجمّعـت حـول " عكّـا " قـوى صليبيّة كبرى : فـلول فرسـانهـم بعـد هـزيمـة " حطّين " بقيـادة لوزجنان ، أمير " صـور " السـابق ، وبقايا الحملـة الصليبيّة الثالثة بقيادة الأمير فريدريـك السـوابي ، وقـوّات فـرنسـيّة وإنكليزيـّة يقودها ريتشـارد قلب الأسـد وفيليب أوغسـطين . وأسـاطيل مـن " جنوى " و " البندقّيّة " وأُخرى من مختلف أنحاء الغرب الأوروبي ، تولّت معاً حصار المدينة من جهـة البحـر . وقـد قُـدّر عـدد المقاتلين حول " عكّـا " آنذاك بمائة ألـف مقاتل (ليونز وجاكسـون : صلاح الدين / 353) . وكان الأمير حسـام الدين بقـوّا تـه ، في عـداد الأمـراء المكلّفيـن بشــن الهجمـات عـلى الجيـوش المحيطـة بالمدينة المُحـاصَـرة ، بقيــادة صلاح الديــن (النوادر السـلطانيّة / 147 و الفيح القسّـي / 442) . وطال القتال مـن حول المدينة مدّة سـنتين . وفي النهاية سـاءت أحوال الحامية الإسـلاميّة داخلها واضطرّت للاسـتسـلام ، وغـادرت مقابـل فديـة قـدرها مائتي ألـف دينـار ، وتحـريـر ألفين وخمسـمائة مـن أسـرى الصليبيين ، وردّ صليـب الصلبـوت ، الــذي كـان قـد وقـع بيـد المسـلمين في " حطّين " (مفرّج الكـروب : 2 / 359 – 6.) .

فـي " تبنيـن "

كـان سـقـوط " عكّـا " الفاجـع انقلابـاً حقيقياً في العـلاقات الإسـلاميّة ـ الصليبيّة . غـدا هؤلاء من بعـده وقـد اسـتعادوا جـزءاً من الروح المعنويّـة التي خسـروها في " حطّـين " . وانصـرف زعـيمهـم الجـديـد ريتشـارد قلـب الأسـد ، ملـك " انجلترا " إلى اسـتثمار هـذا الوضـع الجـديـد ، واضعاً نصـب عـينيه هـدفـاً بعيـداً ، هـو الهـدف المُعلَـن الأول للحـركـة الصليبيّـة ، أي (اسـتعادة) " القدس" .

كـان ريتشـارد يعتقـد بحق ، أن ليـس له أن يصـل إلى " القـدس " إلا إذا بسـط سـلطانه عـلى الشـاطئ الفلسـطيني من " عـكّـا " إلى " عسـقلان " . فبـدأ الزحـف بحـذاء البحـر في أواخـر السـنة 587 هـ / 1191 م . في حيـن كانـت أثقاله ومؤونة عسـكره محمولة في السـفـن تسـير بحذائهـم في البحـر . فأمـر صـلاح الديـن أميريـن مـن أمـرائـه ، أحـدهما حسـام الديـن ، بأن يسـيرا بقواتهمـا في مـوازاة العـدو (الفيح القسّـي / 529) بقصـد مشـاغـلته وتقييـد حـركته . في حيـن سـار هـو بالقـوّات الإسلامية الرئيسيـة في أعـقاب جـيـش العـدو الزاحـف جنوبـاً . ومـع ذلـك فـإن ريتشـارد نجح في أن يسـتولي عـلى " حيفا " و " قيسـاريّة " و " أرسـوف " و " " عسـقلان " . لكن بعـد أن كان المسـلمون قـد خرّبوا أكثر هـذه المـدُن وأحرقوها ، كـي لا يسـتغلّها الصليبيون في الاسـتيلاء عـلى " القدس " وفصـل " الشـام " عـن " مصـر " . كـان ذلك أقصـى ما يمكـن عـمله في ظـل تصاعـد القـوى الصليبيّة ، التي كانـت آنـذاك في أفضـل حال ، لجهة ترابطها و حُسـن تنظيمها و قوّة أسـلحتها .

والحقيقة أن سـقوط " عكّـا " كـان بداية انحـدار القوّة الإسـلاميّة عـن القمّة التي تربّعـت عليها منـذ " حطّين" . لا ، بـل انحـدار هيبة صـلاح الديـن

شخصيّاً ، بوصفه قائدها الأعلى . ومن ذلك انه كان في نيّته الدفاع عن " عسقلان " ، ومنع الصليبيين من الاستيلاء عليها ، لكن أكثر أمرائه خالفوه الرأي ، وقالوا له : " إن أ ردت حفظها فادخل أنت معنا ، أو بعض أ ولادك الكبار . وإلا فما يدخلها منّا أحد ، لئلاّ يصيبنا ما أصاب أهل " عكّا " (ابن الأثير : الكامل / حوادث السنة 587) . وهذا يُظهر لنا بكامل الوضوح ، أ ن هزيمة " عكّا " ، بسبب سؤ تقدير صلاح الدين للموقف العسكري ، كانت حاضرة بقوّة في أذهان أولئك الأمراء .

أثناء الأشهر التي جرت فيها هذه الأحداث ، كان حسام الدين بعسكره يشهد ما جرى من وقائع . كما كان حاضراً دائماً في الاجتماعات التي يعقدها صلاح الدين ، ويحضرها أخوه الملك العادل وكبار الأمراء للتشاور (الفيح القسّي / 533 و 555 والنوادر السلطانيّة / 195) .

في نهاية هذا المُسلسل من الأحداث ، انصرف ريتشارد إلى إعادة بناء مدينة " يافا " ، لتكون قاعدته التي ينطلق منها للهجوم على " القدس " ، في حين اتجه صلاح الدين إليها لتدعيم تحصيناتها وتنظيم شؤون الدفاع عنها . وقد نجح في ذلك أيما نجاح ، الأمر الذي جعل ريتشارد يتراجع عنها بعد أن اقترب من أسوارها . واتجه إلى ا قتراح أفكار للصلح ، بعد أن أنهكت الحرب الطويلة الجميع . وأخيراً تمّ الصلح المعروف بين المؤرخين بصُلح " الرملة " ، بتاريخ 21 شعبان 588 هـ / 1 أيلول 1192 م (الفيح القسّي / 6.3 – 6.5) . وقد نصّت بنود الصلح على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحليّة من " صور " إلى " يافا " . أمّا " عسقلان " فتكون للمسلمين . وتكون " اللدّ " و " الرملة " مناصفة بينهما .(مفرّج الكروب : 2 / 4.3 والروضتين : 2 / 2.3) . وعلى الأثر شدّ ريتشارد رحاله ، وقفل راجعاً إلى بلاده . وهكذا انتهت الحملة

الصليبيّة الثالثة ، ا لتي وضع فيها الغرب الأوروبي بأجمعه أقصى ما عنده من رجال وعتاد ، وهدأت الساحة لفترة غير قصيرة .

في ظلّ حالة السلام التي نشأت بالصلح ، لم يعُد من مُقتضٍ للحشد العسكري الكبير والمتنوّع الذي كان من حول صلاح الدين . فعاد أكثر الأمراء كلّ إلى بلاده . وكان من جملة العائدين الأمير حسام الدين . الذي يبدو أنه وعسكره لم يروا وطنهم " جبل عامل " منذ سنتين ونصف تقريباً ، قضوها في ميادين القتال . سنتان منها في الدفاع عن " عكّا " ، والباقي في مختلف أنحاء " فلسطين " .

اتخذ حسام الدين من قلعة " تبنين " الحصينة مقرّاً رئيسياً له . ولقد كانت قلعة كبيرة في غاية الحصانة . تتربّع على هضبة تعلو ستمائة وأربعة عشر متراً عن سطح البحر . وتشرف من موقعها على كل ما حولها إلى مسافة بعيدة . أمر ببنائها حاكم " طبريّة " الصليبي ، وتمّ له ذلك سنة 499 هـ / 11.5 م . وكان الغرض من بنائها حماية حدود الدولة الصليبيّة الجديدة من جهة إمارة " دمشق " ، ولتكون منطلقاً للأعمال العسكريّة الرامية إلى الاستيلاء على " صور " . ثم غدت بعد ذلك ، أي بعد سقوط " جبل عامل " كلّه ، المركز العسكري والإداري لسُلطة الاحتلال . وحرّرها صلاح الدين سنة 583 هـ / 1187 م ، بعد موقعة " حطّين " مباشرة ، وأقطعها حسام الدين فيما أقطعه إياه من " خيط بانياس " كما قلنا آنفاً . فعادت إلى صفتها السابقة ، أي مركزاً عسكرياً وإدارياً للمنطقة . مع ملاحظة انقلاب الأدوار . فالقلعة قد غدت الآن في أيدي أصحابها الشرعيين ، مركزاً لحماية البلاد ، أي " جبل عامل " " من ذلك الطرف " (النوادر السلطانيّة / 21.) ، أي من طرف " صور " التي كانت ما تزال تحت الاحتلال .

عام وفاة صلاح الدين (589 هـ / 1193 م) كان الأمير حسام الدين قد بلغ أ وج عزّه ، وغدا أرفع الأمراء مكانة في المنطقة الشاميّة . ففي ذلك التاريخ استحقّ من القاضي بهاء الدين بن شدّاد ، صاحب صلاح الدين وأحد مؤرخيه ، وصف " المُقدّم على هؤلاء " يعني الأمراء الذين حضروا المجلس الذي عقده الملك الأفضل علي ، الابن الأكبر لصلاح الدين ووليّ عهده ، لتحليفهم على الإخلاص له ، بينما كان والده المريض في طور الاحتضار . وكان من هؤلاء صاحب " شيزر " ، وصاحب " بيروت " ، وصاحب " صِهيَون " ، إلى عدد جمّ من معارف الأمراء . " وشذ منهم غير معروف " . أي مَن ليس له كبير شأن (النوادر السلطانيّة (245) .

كانت سنوات إمارة حسام الدين على " جبل عامل " من قاعدته في " تبنين " سنوات طيّبة ، عمّ فيها السلام ، وسادها الهدوء . وذلك ، أولاً ، بسبب حالة السلم النسبيّة التي نعمت بها المنطقة ، بعد فشل الحملة الصليبيّة الثالثة في الوصول إلى أهدافها وما انتهت إليه من صُلح . ثم بفضل العسكر العاملي المرهوب الجانب ، الذي تمرّس بالقتال سنوات تحت قيادة أميره . وها هو الآن ، وقد عاد إلى وطنه ، يتولّى حمايته من أي اعتداء يأتيه من جانب " صور " . التي غدت منذ تحرير " القدس " المركز الرئيس لقوّات الاحتلال .

لم تتزعزع حالة السلام هذه إلا لمدّة قصيرة . وذلك حين قصد فصيل من العسكر الصليبي قلعة " تبنين " . وقد عرفنا أنها كانت المركز العسكري والإداري لحسام الدين . ولهذه الواقعة قصّة .

ففي أواسط السنة 593 هـ / أواسط 1196 م تلقّى الصليبيون مدداً

عسكرياً كبيراً من " أوروبة " ، أكثرهم من الألمان . نزل هؤلاء " عكّا" ، ومنها اتجهوا إلى " بيروت " ، فملكوها صفواً بغير قتال . ثم ارتحلوا عنها إلى " صور" ، ومنها صعدوا إلى " تبنين " .

في أول شهر صفر 594 هـ / أواسط كانون الأول 1197 م شرعوا في حصار القلعة " وكانت بيد حسام الدين بشارة . فنازلوها بفارسهم وراجلهم . وأحدقوا بها وضايقوها " (ابن واصل : مفرّج الكروب : 3 / 75) وقاتلوا مَن بها قتالاً عنيفاً . ونقبوها من جهاتها . لكن حُماتها " أصرّوا على الامتناع . وقاتلوا قتال مَن يحمي نفسه " (ابن الأثير : الكامل : 12 / 128) . وبعد شهر ونصف من الصمود يئس المهاجمون " ورحلوا على أعقابهم إلى صور خايبين " (أبو الفدا : المختصر / حوادث السنة 593 هـ) . وغني عن البيان أن قصد هؤلاء قلعة " تبنين " بعد نزولهم " صور " ليدلّ على ماكان لقلعة " تبنين " وحُماتها في ذلك الأوان من مكانة في الميزان العسكري بين المسلمين والصليبيين .

حسام الدين
في مأزق حرب الوراثة

بتاريخ 27 صفر 589 هـ / 5 آذار 1193 م توفي صلاح الدين في " دمشق " . وكان قد أوصى لابنه البكر ، الملك الأفضل نور الدين علي ، بالسلطة من بعده . على أن يكون لكلّ من أبنائه وإخوته حصته من التركة الهائلة . وكانت " دمشق " وما والاها ، ومنه " جبل عامل " ، من نصيب الأفضل . وهو الذي كان حسام الدين قد بايعه في حياة أبيه ، أو " حلف له " ، كما كان يُقال في لغة ذلك الزمان ، غير مرّة ، كما فعل غيره من الأمراء (ابن الأثير : الكامل / حوادث السنة 589) . وهكذا فإن الوضع

الجديد لم يؤثّر أثراً سيئاً على موقع حسام الدين في البداية . فاستمرّ في الحكم كأن شيئاً لم يكن . وهكذا مضت السنوات الخمس الأولى من بعد وفاة صلاح الدين .

لكن حرب الوراثة لم تلبث أن نشبت بين أمراء البيت الأيوبي . بدأت بحجّة نقص كفاءة الأفضل . وأنه كان يشرب الخمر ، ويُمضي ليله ونهاره في القصف واللهو وسماع الأغاني . وتلك حجّة لم تكن باطلة (المقريزي : السلوك : 1 / 118 و النجوم الزاهرة : 6 / 12. – 22) . وقد أدّت ، اعني تلك الحرب ، إلى انفراط الوحدة السياسيّة ، التي يعود إليها الفضل في الإنجازات العظيمة التي تمّت على يد مؤسّس البيت ، وقام عليها مجده . وإذا كانت أعمال صلاح الدين ضدّ الغزاة الصليبيين قد وجّهت ضربة قاصمة إلى وجودهم في المنطقة ، فإن النزاعات المستمرّة التي نشبت بين أبنائه من بعده قد منحتهم فرصة جديدة للبقاء من بعده مدّة تزيد على القرن من الزمان .

بدأ النزاع أول ما بدأ بين العزيز حاكم " مصر " وبين أخيه الأفضل حاكم " دمشق " ، ثم اتسعت شقته فيما بعد. تغذيه أطماع كل الأطراف في الاستيلاء على أكبر رقعة من البلاد . والحقيقة أن العادل ، الذي " كان ذا مكر شديد وخديعة ، صبوراً ذا أناة " ، كما وصفه ابن واصل في (مفرّج الكروب : 3 / 271) ، كان يتلاعب بالجميع ، ليكون هو الفائز بنصيب الأسد في نهاية كل نزاع .

صيف السنة 592 هـ / 1195 م خرج العزيز من " مصر " بجيشه ، قاصداً حرب أخيه الأفضل . وشرع في محاصرة " دمشق " . فلم يجد هذا بُدّاً من الاستنجاد بعمّه العادل ، لعجزه عن مواجهة أخيه

القوي . وبالفعل استجاب العادل لنداء ابن أخيه ، فسارع بالحضور إلى " دمشق " . كما حضر الملك الظاهر صاحب " حلب " ، والمنصور محمد صاحب " حماة " ، والملك الأمجد صاحب " بعلبك" . والتقى الجميع في " المِزّة " خارج " دمشق " . واتفقوا على منع العزيز من الاستيلاء عليها ، لا لشئ إلا لعلمهم بأنه " إن ملكها أخذ بلادهم " (المقريزي : السلوك : 1 / 117) . وعندما رأى العزيز أن لا قِبَل له بجَمع هؤلاء قفل عائداً إلى " مصر " .

في العام التالي عاد العزيز وقصد " دمشق " على رأس جيشه لحرب أخيه ، الذي عاد أيضاً واستنجد بعمّه . فلمّا اقترب العزيزمن المدينة كاتب العادل أمراء العزيز سرّاً واستمالهم . وأغراهم بأن يفارقوا العزيز وينضموا إليه . وهكذا وجد هذا نفسه وقد انفضّ عنه أمراء جيشه ، فاضطر أيضاً للعودة إلى " مصر " (نفسه : 1 / 124 – 25) .

وتمّ الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ الأفضل " مصر " ، ويتخلّى عن " دمشق " للعادل . فجمع الاثنان جيشيهما ، واستوليا على " القدس " . ثم شرعا في الزحف باتجاه " مصر " ، إلى أن وصلا إلى " بلبيس " وحاصراها . لكن الداهية العادل كان يلعب بالاثنين . فهو في حين كان جيشه يشترك في حصار " بلبيس " ، كان هويُكاتب العزيز ينصحه بالثبات وعدم تسليم البلاد ، ويتعهّد له بأن يجعل الأفضل ينسحب من أمام " بلبيس " ، بل من " مصر " كلها . وهكذا كان ، فقد عاد الأفضل إلى " دمشق " . وصار العادل سيّد الموقف .

في نهاية المطاف ، تحالف العادل والعزيز ، واتفقا على عزل الأفضل نهائياً . وقصد جيشاهما " دمشق " ، فسقطت في أيديهما دون

مقاومة . وحلّ العادل محلّ الأفضل في حكم " دمشق " . في حين بقيت " مصر " للعزيز ، ومعها " القدس " .

بالنسبة لحسام الدين في هذا المعترَك ، الذي طال حتى الآن ثلاث سنوات ونيّف ، فإنه ظلّ متخذاً جانب الملك الأفضل ووفيّاً لقسمه له ، بل بالأحرى وفيّاً للعهد الذي قطعه لأبيه صلاح الدين . وحتى بعد ظهور إمارات تقدّم العادل على أبناء أخيه جميعاً ، وأيضاً بعد أن ثبت فشل الأفضل في الحكم ، وسوء سيرة وزيره ضياء الدين ا بن الأثير ، أخي المؤرّخ ، ـ فإن حسام الدين ثبت على وفائه لصاحبه . رافضاً بإصرار طلب العادل بان يكون إلى جانبه (مُفرّج الكروب : 3 / 117) . بل واشترك بعسكره مع الظاهر صاحب " حلب " ، وشيركوه الثاني صاحب " حمص " ، والمنصور محمد صاحب " حماة " ، وسعد الدين مسعود صاحب " صفد " في حصار " دمشق " ، وبها الملك العادل سنة 595 هـ / 1198 م (النجوم الزاهرة : 6 / 148 ومرآة الزمان : 8 / 462) .

ومع ذلك كلّه ، وخصوصاً مع أن العادل ، خصم حسام الدين الأول ، أصبح منذ السنة 593 هـ / 1196 م سيّد الموقف في المنطقة الشاميّة ، وصار وسط " الشام " كلّه في قبضته ، فإن حسام الدين بقي صاحب قلعة " تبنين " وأمير " جبل عامل " دون منازع . وما من ريب في أن ذلك لا يعود إلى تعفّف العادل عن خلعه والاستيلاء على ما تحت يده . وهو الذي لم يتورّع عن عمل كل ما في وسعه لانتزاع أملاك أبناء أخيه ، وصاحب الفضل الأول في إيصاله إلى ما هو الآن . والتفسير الوحيد الذي يبدو لنا لذلك هو في قوّة حسام الدين العسكريّة . وهو الذي كان يقود جيشاً تمرّس بقتال الصليبيين سنوات . ويضع يده على عدد كبير

مـن القـلاع والحصـون ، أكثرها أهميّة قلاع " هونين " و " شـقيـف أرنون " و " شـقـيـف تيـرون " و " تبنـين " و " بانياس " ، فضـلاً عـن عـدد مــن الحصون الداخليّة : " دوبيه " و " شـمَع " و" مارون " و " أبي الحسـن " .

فـي مُسـتهـلّ شـهـر ذي القعـدة 597 هـ / تشـرين الثانـي 12.. م تحالـف الأفضـل ، الـذي كان قـد أُعـطـي إقطاعاً صغيـراً في " صـرخـد " ، مـع أخيه الملك الظاهـر صاحـب " حلـب " ، وجـاءا بعسـكريهما وحاصـرا " دمشق" وكان فيها ابن عمهما المعظّم عيـسى . في حين أن العادل كان في " مصـر " . وجـاء حسـام الديـن أيضـاً بجنـده " فقاتلوا دمشـق أياماً " (مرآة الزمان : 8 / 479) . وزحفت الجيوش الثلاثة ، والظاهـر أنها نجحـت فـي دخـول جـزء من المدينة . ولكن المعظّم قاتلهـم ، ونجح في حفظها . فأقامـوا شـهرين يحاصرونها . وبلغ ذلـك العادل في " مصـر " ، فجـاء ونـزل مدينـة " نابلـس " . ومـن هـناك أخـذ يعمل عـلى طريقته في كسـب الحـرب بالدهاء والمكيدة . وبالفعـل وصل إلى ما يريـد ، ووقع الخلاف بين الأخوين الأفضل والظاهـر ، فرفعا الحصار ورحلا عـن " دمشـق " . وما ندري كيف تـمّ لهذا الداهية ما أراد . لكن ابن الجوزي أورد كلامـاً غامضاً فهمنا منه ذلك ، حيث قال : " ووقعـت المصلحة [يعني : المكيـدة] للعادل والخُلـف بين الأخويـن " (مـرآة الزمـان / نفســه) . وهـكـذا أثبـت العادل أيضـاً وأيضـاً أنـه الأقـوى والأكثـر دهـاءً بيـن كـل أمـراء البيـت الأيوبـي . وهـكـذا بقـي الأميـر حسـام وحـده في الميدان عرضة لانتقـامه . وكانـت هـذه هي الفـرصـة التي انتظرها ذلـك الداهية طويلاً .

جـاء العادل ودخل " دمشـق " ، بعـد أن كان حسـام الديـن قـد تراجع واعتصـم في " بانيـاس " . وما نـدري لمـاذا اختـارهـا بالـذات ، مع أن فيمـا تحت يـده من القـلاع ماهـو أكثـر حصانة بكثير ، وخصوصاً قلعة " تبنين " ،

التي تقع في وسط " جبل عامل ، وفي قلب الكثافة السكانيّة منه. والظاهر أنه ، وهو العارف بما ستأول إليه الأمور ، وأ ن العادل لن يتركه ونفسه ، بل سيلاحقه أينما يكون ، أراد أ ن يُجنّب وطنه مغبّة أن يكون ميدان حرب ، وأن تجوسه أقدام المقاتلين ، مع ما يترتّب على ذلك من أذى بالغ ينال المدنيين . ولذلك ، فيما نحسَب ، اختار " بانياس " التي تقع في أطراف " جبل عامل " بعيداً عن سكّانه .

بادر العادل فأعلن عزل حسام الدين ، وتولية الأمير فخر الدين ، المعروف بشركس (جهار كَس) على كامل إقطاعه ، أي على " جبل عامل " كلّه . ولهذا الغرض استحضره وعسكره من " مصر " . ومضى هذا ، ومعه المعظّم عيسى ، فحاصروا " بانياس " ، " وبها حسام الدين بشارة . فقاتل وقُتل وُلده . وأخرجوه من البلاد . وتسلّمها شركس " (مرآة الزمان / أيضاً . ونص مشابه في : مفرّج الكروب : 3 / 117 و : الدارس في تاريخ المدارس : 1 / 496) .

بتاريخ 26 ربيع الآخر 598 هـ / 25 آذار 12.1 ، أي بعد زهاء الأربعة أشهر من إخراجه ، توفي الأمير حسام الدين بشارة (أبو شامة : الذيل على الروضتين / 31) . ولا نصّ هنا على ملابسات ومكان وفاته . لكن الذهبي في (تاريخ الإسلام : حوادث ووفيات 591 – 6.. / 341) يقول : " بشارة ، الأمير حسام الدين ، أمير بانياس ، توفي فيها " وهو النص الوحيد ، بقدر ما بحثنا ووجدنا ، على مكان وفاته . ويُفهم من ذلك ، وقد صار أمر الحصن لعدوه ، أنه أقام فيه سجيناً ، بمعنى من المعاني ، حتى توفي في ظروف غامضة .

الأميـر حسـام الديـن
فــي وقـعــة " حِطّيــن "

" حِطّين " قرية صغيرة غربي " طبريّة " ، منحت اسمها لسهل كبير هو " سهل حِطّين " ، لم يكن يوماً شيئاً مذكوراً في البقاع ، إلى أن حصلت فيه الوقعة الشهيرة بين المسلمين والصليبيين .

لم تكن وقعة " حِطّين " مجرّد نصر للمسلمين وهزيمة للصليبيين في معركة من المعارك . بل كانت انقلاباً حقيقياً في مسار الصراع الإسلامي ـ الصليبي . ففيها انتهت مملكة " القدس " اللاتينيّة . وكان لذلك آثاره الاستراتيجيّة والنفسيّة البعيدة على حركة ظلّت تعلن دائماً أن هدفها هو استنقاذ " القدس " وقبر المسيح من المسلمين . وفيها خسر الصليبيون زهرة فرسانهم بين قتيل وأسير . إلى جانب أعداد كبيرة جداً من الجنود . بحيث أن الإمارات الصليبيّة ظلّت من بعد ذلك تعاني من نقص بالغ في المقاتلين والسكّان . ومن ثمّ دأبت على إطلاق النداء تلو النداء للغرب لكي يمدّها بالمقاتلين ، كلما جدّ الجدّ ، أو لاحت لها إمارات خطر وشيك .

الغاية من هذه المقدّمة بيان أهميّة وقعة " حِطّين " فيما جرى من أحداث في تلك الأيام ذات الخطر . وليكون تمهيداً لطرح السؤال : هل شهد الأمير حسام الدين بشارة تلك الوقعة ؟ وغني عن البيان أن المقياس الحقيقي لأهميّة الرجال ، هو في مشاركتهم في الأحداث الكبيرة التي تتقاطع مع خط حياتهم .

المصادر لا تذكر إطلاقاً ما يُنير هذه النقطة إنارةً مباشرة . غير أن هذه الملاحظة لا تنفي أبداً صفة الجدّيّة عن السؤال . أي أن عدم ذكر حسام الدين في عِداد مَن شهدوا " حِطّين " لا يصلح دليلاً على أنه لم

يشهد الوقعة . لأن الذين كتبوا تاريخ تلك الأيام لم يكونوا معنيين أ بداً ببيان مثل هذه الأمور الصغيرة . كانوا مؤرّخي سُلطة ، همّهم وقصدهم محصور في بيان أعمالها ، وتمجيد انتصاراتها عندما تنتصر ، وتغطية أخطائها ومواطن الخلل من سياستها وتدبيراتها . وهذه قاعدة تشمل غير حسام الدين أيضاً . لكن حسام الدين ينفرد عن كل الأمراء الذين شاركوا بعساكرهم في عديد الجيش الذي كان يعمل تحت راية صلاح الدين ، بصفته الأمير الشيعي الوحيد . هذه الصفة هي التي جعلت بعض المؤرخين ، من أصحاب العصبيّة المذهبيّة ، يستنكفون عن ذكره ، حتى عرَضاً . وأبرز مثال على هذه الملاحظة المؤرخ ابن الأثير ، في كتابه الشهير (الكامل في التاريخ) ، الذي لم يأتِ على ذكر حسام الدين أبداً في كتابه هذا . مع أنه كان معاصراً له ، وعرفه معرفة كافيةً ولا ريب . كما أنه عُني بالتأريخ لأعمال صلاح الدين ، التي كان لحسام الدين دوراً بارزاً جداً فيها ، كما عرفنا من كل ما فات . وحتى عندما لا يجد مفرّاً من ذكر حدث كان حسام الدين بطله ، فأنه يفعل كل ما في وسعه لحرف الأمور عنه ، ونسبة الفضل إلى غيره . والمثال الأكثر وضوحاً على تلاعب ابن الأثير بالأخبار ، وضمناً بوجدان القارئ ، هو ما أشرنا إليه في المقدمة ، حين عرَض لذكر واقعة حصار الصليبيين لقلعة " تبنين " وصمودها تحت قيادة حسام الدين ، وكيف نسب الفضل في صمودها إلى أحد أمراء البيت الأيوبي . ولم يأتِ على ذكر حسام الدين إطلاقاً ، خلافاً لكل المؤرخين الذين ذكروا الواقعة .

لذلك فإننا ، ونحن نحاول الإجابة على السؤال الذي طرحناه ، سنعمد إلى الحصول على الجواب من خلال مقارنات تاريخيّة نُجريها بين أحداث ثابتة ، كي نصل عن طريق معلومتين أو أكثر إلى مجهول . واستناداً إلى ما لنا من تجربة في هذا الميدان ، فنحن نأمل أن نصل من

خـلال قـراءة التقاطعات بينها إلى ما يُنير الدرب إلى الحقيقة .

ولقـد كنّـا قد عـرفنا فيما سـبق ، أن صلـة حسـام الديـن بصلاح الدين هي تأصيـل عـن صلة أبيه مـن قبله بالسـلطان . وأ ن مـن المؤكّـد أ ن حسـام الديـن كـان في عِـداد مَـن هـم حـول صـلاح الديـن بتاريخ 8 جُـمـادى الآخـرة 582 هـ / 27 أيلـول 1186 م عـلى الأقـلّ . أي قبل وقعـة " حِطّيـن " بسـنة عـلى التقريـب . وأنـه كـان فـي ذلـك الأوان مـوضـع ثقتـه أخلاقياً وكفـاءةً . بحيـث يكلّفـه بمهمّـة دقيقـة ، تتعلّق بالأمـن الشـخصي لولـده الظاهـر ، حيـن ولاّه عـلى " حـلـب " . وكـان إذ ذاك فتـىً حـدِثـاً لا خبـرة لديـه . فـهـذا يـدلّ دلالة شـبـه قاطعـة ، عـلى أ ن حسـام الديـن كـان يـومـذاك مُعـرقـاً فـي الحيـاة العسـكريّـة . ذلـك أنـه مـن غيـر المعقـول أن يصِـل امـرؤ إلى مـوقـع كـهـذا دون أن يكـون قـد اكتسـب خبـرة كافيـة بالممارسـة العمليّـة .

بتاريخ 24 ربيع الآخـر 583 هـ / 2 تموز 1187 م حصلت موقعـة " حِطّيـن " . والمـؤرّخـون يصفـون لنـا هنا كـيـف أ قـام صلاح الـديـن فـي " دمشـق " ، يُشـرف بنفسـه عـلى حركـة التعبئـة الشـاملة لكـل مـا اسـتطاع جمعـه مـن قـوى المسـلمين ، ومـواردهـم الماديّـة والبشـريّـة . وكيـف عـمـل عـلى حشـد القـوّات مـن " مصـر " و " حلـب " و " الجـزيـرة " و " ديـار بكـر " وسـائر بلاد " الشـام " (الحركـة الصليبيّة / 8..) . المهـمّ بالنسـبة إلينا عـند هـذه النقطة مـن البحـث ، أنـه ما أ ن وقعـت المعركـة المُنتظَـرة فـي سـهـل " حِطّيـن " ، وانجلـت عـن نصـر مُبيـن للمسـلمين ، إذا بحسـام الديـن وقـد غـدا من كبـار أمـراء الجيـش العامـل تحت قيادة صلاح الدين . وأصبح اسـمه شـيئاً مـذكـوراً في كـتُـب التاريخ ، التي تصِـف الأعمـال التي تلـت يـوم " حِطّيـن " ، رامية إلى اسـتغلال لحظة النصـر ، وتصفية الوجـود الصليبي في كافـة أنحـاء دار الإسـلام .

ونحن نعرف جيداً أ ن لقب (الأمير) كان يومذاك ذا صفة عسكريّة ، لها معنى مُحدّد ، يكتسبه صاحبه فقط لوجود عسكر كبير له ضمن التحالف الذي يتشكّل منه جيش صلاح الدين . والذي جمع تشكيلات عربّية وتركيّة وكرديّة ، تنتمي إلى مناطق عدّة ، كلّ منها يعمل تكتيكياً ، أي في ساحة المعركة ، بأمر من أميره ، الذي جاء به وضمّه إلى الجيش العامل في قتال الصليبيين .

من المؤكّد أ ن الأمير حسام الدين بشارة لم يكن استثناءً من هذه القاعدة . أي أن من المؤكّد أنه اكتسب لقب الأمير لوجود عسكر له ضمن التحالف الذي يتشكّل منه جيش صلاح الدين . وعلى كل حال ، فإن ذكر عسكره " عسكر بشارة " كثير جداً في نصوص ذلك العصر ، في سياق وصف الأعمال القتاليّة ضدّ الصليبيين (مثلاً : النوادر السلطانية / 147 و الفيح القسّي / 442) . وهنا نُذكّر بالعبارة ذات المغزى ، التي خصّ بها العماد الإصفهاني عسكر بشارة دون سواه ، وهو يصِف تشكيل الجيش المسلم وهو يتقدّم للقتال حول " عكّا " سنة 586 هـ / 119.م ، حيث قال : " .... والأمير بشارة ، صاحب بانياس ، وهو الذي ليس يرجو لقاءه إلا مَن بان فيه الياس " (الفيح القسّي / 442) . وهي تدلّ دلالة لا لَبس فيها على الصيت الطيّب ، الذي اكتسبه عسكر بشارة في الأعمال القتاليّة المتواصلة ضد الصليبيين منذ " حِطّين " .

والآن نسأل :

من أين جاء " عسكر بشارة " ؟

في الجواب نقول : لا مفرّ لنا من القول أنه جاء من حيث أتى بشارة نفسه ، أي من " جبل عامل " . ذلك هو التصوّر الوحيد الممكن ،

والـذي يتناسـب مع مجـاري الأمـور فـي ذلـك الأوان . وإلا فكيـف لـنا أ ن نتصّور أنـه ، وهـو العاملي الشـيعي ، يحصـل عـلى أتباع مـن غـير وطنه ، ومن غـير مذهبه ، يتقـدّم بهم للانضمام إلى جيـش صلاح الدين ؟ ! بالتمعّـن في التشـكيلات التي كانـت تؤلّـف بمجموعها ذلـك الجيـش ، نـرى أنها جميعها مُصنّفة بحسب المناطق التي جاءت منها ، أو بحسب صفتها الأقواميّة . هناك مثـلاً : عـسكر " حلـب " ، عسـكر " حمص " ، إلى جانـب العسـكر الأكـراد والتركمان .... الخ .

والنتيجة التي نصِـل إليها مـن هـذا التدقيق والمقارنات ، هي أنـه فـي الـوقـت الـذي كـان فيه الجـزء الأكبـر مـن " جـبـل عـامـل " يـرزح تحـت الاحتلال ، كان فريـق من أهله قـد بدأ يُنظّـم نفسـه بقيادة حسـام الديـن بشارة. مأخـوذاً بالتغييـر الجذري الـذي أدخله صلاح الديـن عـلى نظام العلاقـات بيـن الناس ، نتيجة سـياسـته البعيدة النظر . والحقيقة أن صلاح الدين كان ، خلافاً لسـلفه نور الدين محمود بن زنكي السـلجوقي ، رجل سـياسـة من طراز رفيع يعـرف جيـداً كيـف يُديـر القوى التي بين يديه ، أو التي في وسـعه أن يكسـبها إلى جانبـه . كما أنه كان بعيداً جـداً عـن النظـرة المذهبية الضيّقة التي خضع لها سـلفه وحكمت سـياسـته . ولذلـك فإنـه منح الأولويّة المطلقة للنصـر عـلى العـدو ، مـع ما يقتضيه هـذا الغـرض مـن كسـب كـل القـوى الإسـلاميّة إلى جانبه . دون أن يسـمح لعوامـل الفـرقـة الـمُزمنة أ ن تفعـل فعلهـا التاريخي ، وتنـال منـه ومـن مسـاعـيه وسـياسـته الأمـر الـذي سـيكـون لمصلحـة العـدو في النهايـة .

نُضيـف إلى هـذا ، ونحـن نتأمّـل فـي حـوافـز أبنـاء " جبـل عامـل " آنـذاك للتأثّـر عـملياً بالجـو الجهـادي الـذي أشـاعـه صلاح الديـن مـن حولـه ، أن أول انتصـار سـجّله عـلى الصليبيين حصـل عـلى أرض " جبل عامل " ،

وبالتحديد في " سهل مرجعيون " ، بتاريخ 3 محرّم 575 هـ / 1. حزيران 1179 م . كما أنه أوكل إلى ابن أخيه فرّوخ شاه ، واليه على " دمشق " ثم على " بعلبك " ، إبقاء ممرّ الليطاني ، الموصِل بين " سهل البقاع " و " جبل عامل " المُحتلّ ، منطقة تماسّ ساخنة مع العدو . تتخذه القوّات الإسلامية مسلكاً للغارة على الأرض المُحتلّة . غارات متتالية تولاّها فرّوخ شاه دونما كلل . متّبعاً أسلوب الغارات الخاطفة والانسحاب السريع ، لعجزه عن مواجهة العدو في معركة فاصلة .

في هذا الإطار من العمل الجهادي ، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ " جبل عامل " . نقرأه في بروز حسام الدين بشارة قائداً وأميراً . ولقد كان من حق هذا التحوّل التاريخي أن يُقرأ قراءة مباشرة ، لو اننا كنّا نملك تاريخاً حقيقياً ، يؤرّخ للإنسان العادي ، الصانع الحقيقي للتاريخ ومالكه . لكننا من أسف ما نزال أسرى التاريخ السلطوي ، الذي يُغمض عينه عن الإنسان ، ويمنح كل اهتمامه للسلطة .

نظن أن فترة الإعداد لمعركة " حِطّين " ، حيث انصرف صلاح الدين إلى حشد كل ما وصلت إليه يداه من موارد بشريّة وما ديّة استعدادا للمعركة ، كما ذكرنا قبل قليل ، ـ كانت هي التي بدأ فيها " جبل عامل " ينهض بقوّة من تحت الاحتلال . وكانت هي الفرصة التي اهتبلها حسام الدين ليُكوّن عسكره القوي . والدليل على ذلك ، أنه على أثر " حطّين " مباشرة تحوّل موقعه فجأةً من ضابط في عسكر صلاح الدين وموضع ثقته ، إلى أمير كبير ، يقود إحدى التشكيلات العسكرية العاملة ، تحت راية صلاح الدين ، ولا يغيب عن المعارك المتتالية . ويحضر اسمه في عامة ما أرّخ به المؤرخون لتلك الأيام المجيدة .

ومن المعلوم أ ن السبيل الوحيد لبروز شخص مثل حسام الدين في زمن الحرب ، محصور في إنجازاته وأعماله في ساحات القتال . وإلا فكيف نتصوّر أ ن شخصاً مثله ، نبت في منبت عادي ، ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً ، يصِل إلى ما سبق أن وصفناه من مرتبة عالية .

فهذه أدلّة فوق ما يحتاجه البحث ، وفوق ما يطلبه الجواب على السؤال ـ الإشكاليّة الذي طرحناه أعلاه . تتقاطع جميعها عند نقطة واحدة ، هي أن حسام الدين بشارة لم يغِب عن مواطن الجهاد منذ السنة 582 هـ / 1186 م . وأن مكانته قد ارتفعت بين أمراء صلاح الدين بعد " حِطّين " مباشرة ، بحيث أنه عند وفاة هذا بعد سبع سنوات ، أي سنة 589 هـ / 1193 م ، كان هو " المُقدّم على هؤلاء " . ممّا يدلّ دلالة قاطعة على أنه وعسكره كانوا من أبطال معركة " حِطّين " المجيدة .

مـوقـع الأمير حسـام الدين بشـارة

في تـاريخ " جبل عامل "

" بـلاد بشـارة "
ودلا لـــــة الإســـم

ظـلّ " جبـل عامـل " يُعـرف حتى وقـت قـريـب جـدّاً باسـم آخَـر هـو " بـلاد بشـارة " ، نسـبةً إلى الأميـر حسام الديـن بشـارة نفسـه . كمـا أن أهليـه كانـوا يُنسـبون نسـبة مُشـتقّة من هـذا الاسـم ، فيُقـال : بشـاريّة .

ومـع أ ن " جبـل عامـل " والنسـبة إليه (عاملـي) كانـت وما تـزال الأشـهـر والأكثر دوراناً في الأدبـيّـات ، فـإن هـذا لا ينتقـص من دلالة إطلاق الاسـم وبقائـه الأشـهَـر والأكثـر دورانـاً عـلى الألسـن في اللغـة اليوميّة للناس مـدّة تناهـز الثمانية قـرون .

علينا أن نلاحـظ هـنا أن لكـلٍ من النسـبتيـن مسـتواها والوسـط الـذي تنتشـر فيـه . نـادراً ما نقـع عـلى " بلاد بشـارة " والنسـبة إليهـا (بشـاري) في الأدبيّـات . ومـن الأمثلـة النادرة جـداً عـلى ذلـك وصـف أحـد آل الأسـعـد نفسـه ، في رسـالة ترجـم فيها لنفسـه ، بـ " البشـاري " . ، وآل الأسـعد مـن العائلات العـامليّة التي كـانـت ذات مـكـانـة سياسـيّـة عالية حتى وقـت قريـب (المـرادي : سـلك الـدّرر في أعـيان القـرن الثاني عشـر : 4 / 14) .

أمّـا الأدبـيّـات فـإنهـا تمسّـكت بشـدّة باسـم " جبـل عامـل " وبالنسـبة إليه " عاملي " . ذلـك لاتصالها ، أعني النسـبة ، بأمجـاد التاريـخ النهضـوي لـ " جبل عامـل " . وخصوصـاً لأنها اللقـب الذي آثـر علماؤه تذييـل أسمائهم به ، منـذ الشـهيـد الثاني ، زيـن الديـن بن عـلي الجُباعي (911 – 965 هـ / 15.5 – 1558 م) . ثـم اكتسـبت شـرفاً إضافيّـاً في " إيـران " ، بسـبب التأثيـر البالـغ الذي كان للعلماء المهاجرين من " جبل عامل " إلى هـذا البلـد ،

وما ترتّب على ذلك من ارتفاع مكانتهم . ومذ ذاك صارت النسبة تشريفاً كبيراً لمن يحملها .

وجه أهميّة هذه الملاحظة ، عن الوسط الذي تنتشر فيه كلّ من النسبتين ، أنها تُبيّن ضمناً الوسط اللذين وُلدتا فيه . وبالنسبة لِما نعالجه الآن خصوصاً ، فإنها تُبيّن أنها وُلدت في الوسط الذي انتشرت فيه ، أي في الوسط الشعبي ، وبمبادرة حُرّة من الناس . هنا لا بدّ لنا ، ونحن في سبيل تحليل هذه المبادرة وفهم دلالتها أن نأخذ بعين الاعتبار ما يلي :

ـ أولاً : ما من ريب في أ ن الاسم التاريخي والأكثر عراقة هو " جبل عامل " أو " جبل عاملة " ، نسبة إلى القبيلة اليمانيّة (عاملة) ، التي باينت منازلها الأصليّة في " اليمن " ، ونزلت " جبل الجليل " ، إثر حادثة سيل العرِم الشهيرة ، كما يُقال . ومع الوقت تحوّل الاسم في الوسط العربي إلى الاسم الذي يتناسب مع الحقائق السكّانيّة الجديدة ، فغدا " جبل عاملة " ثم " جبل عامل " .

ـ ثانياً : إن أسماء البلدان والمعالم الجغرافيّة هي من أكثر الأسماء ثباتاً واستعصاءً على التبدّل . إنها لا تتبدّل ، إن تبدّلت ، إلا بتأثير عامل قوي جدّاً .

فما هو ذلك العامل الذي جعل الناس يأخذون المبادرة من جانبهم في هذا ؟ وما هو مغزى هذا التبدّل والتبديل ؟

لقد عرفنا ممّا فات ، أ ن " جبل عامل " قد تشكّل سُكّانيّاً من مِزق الجماعات الشيعيّة التي كانت مُنتشرة بكثافة في أنحاء " الأردنّ " و

" فلسطين " ، بسبب البعثرة السكّانيّة الهائلة التي أحدثتها الحملة الصليبيّة الأولى ، وبالخصوص احتلال " القدس" والمجزرة الرهيبة ا لتي ارتكبها المحتلون فيه ، وسقط ضحيتها عشرات الآلاف دون تمييز . الأمر الذي بعث حالة من الرعب العام ، جعلت الناس يفرّون هاربين على وجوههم إلى أقرب مكان بدا لهم مأمناً . ودائماً كانت الجبال ملجأ لأمثال هؤلاء . وما كان هناك في متناولهم غير " جبل عامل " .

هكذا غدا الجبل عامراً ، إلى حدّ الامتلاء أو شبه الامتلاء ، بجماعات بشريّة اضطرّت اضطراراً للنزوح عن أوطانها ، ونزول هذه المنطقة الجبليّة الشحيحة . أين منها مواطنها الخصبة . خصوصاً حين نذكر " طبريّة " وعشرات القرى التي تطيف ببحيرتها العذبة . من حيث أتى أكثر النازحين .

ومن المعلوم أن انخلاع الجماعة من وطنها هو ، في معنى من معانيه وفي غائلة من غوائله ، قطع مع تاريخها الخاص . فالوطن ليس مُجرّد أ رض يعيش عليها أهلها . إنه أيضاً وعاء الماضي ، وحصن الحاضر ، ومزرعة المستقبل . وفي هذا التحليل سرّ من أسرار سبب تعلّق الإنسان بوطنه . وعندما يُقسرون على تركه ، يُخلّفون وراءهم كل ذلك . هكذا فعندما انخلعت تلك الجماعات من مواطنها في " وادي الأردنّ " وغيره ، ونزلت " جبل عامل " انخلعت أيضاً من جزء عزيز من ذاتها المعنويّة . ولم يعُد في طوقها أ ن تستمرّ هكذا بكل بساطة ، وكأن شيئاً لم يحدث . بل بات عليها أ ن تستأنف بناء ذاتها المعنويّة من جديد ، ابتداءً من نقطة جديدة . هي هذا الوطن الجديد الذي ألقت رحالها فيه .

ولكن ، أنّى للملجأ أن يغدو وطناً ! وأنّى لقوم ألجأتهم ظروف قاهرة إلى نزول أ رض لا يعرفونها ، ولا علاقة تاريخيّة لهم بها ، أ ن يُعيدوا بناء ذاتهم المعنويّة المفقودة انطلاقاً من هذا (الوطن) ! ثم أنّى لمَن يعيشون تحت احتلال قاسٍ لا يرحم ، يُعاملهم معاملة الأقنان الذين يملكهم عمليّاً مالك الأرض ، أن يملكوا الإلتفات والفرصة إلى أمر معنوي كهذا ! وهم الذين لا تسمح لهم حياتهم الزريّة بأكثر من السعي إلى البقاء على قيد الحياة .

أعتقد أ ن القارئ الحصيف ، الذي يتذكّر جيّداً ما قلناه بأقصى ما وسعنا من تفصيل ، عن أعمال حسام الدين بشارة في ميداني الجهاد والسياسة . وأحسن التأمّل فيما قلناه على التركيبة السكّانيّة لـ " جبل عامل " في فترة نشوئه . ووعى جيّداً مشكلة الإنسان فيه ، كما بيّناها في تلك التساؤلات الثلاث ، ــ قد بدأ ت تلوح له إمارات الدور المعنوي البالغ الأهميّة ، الذي أدّاه الأمير حسام الدين بشارة لقضيّة وطنه ، انطلاقاً من دوره الجهادي والسياسي ، وعلاقة ذلك بمبادرة الناس إلى إطلاق اسمه على وطنهم الحقيقي الجديد .

لقد نظّم حسام الدين أبناء وطنه وقادهم في ميادين القتال ، ووصل بهم في هذا إلى أعلى المراتب ، كما عرفنا . وبذلك لم يمنحهم فقط فخر المقاتل الظافر ، بل أهّلهم لأن يمنحوا أنفسهم علاقة متينة بوطنهم الجديد . هي علاقة الإنسان بالأرض التي حرّرها وحماها . الفرق شاسع جداً بين حالة اللجوء الذليلة التي كانت قائمة بين النازح والأرض من قبل ، وبين حالة المقاتل الظافر ، الذي انتزع الحريّة للأرض وللإنسان من المحتل انتزاعا .

علينا ، ونحن نصِف التحولات في العلاقة بين الإنسان والأرض في تلك الفترة الحرجة من تاريخ " جبل عامل " ، أن نقف على أمر آخَر يتصل بالجانب السياسي . ربما كان أكثر أهميّة ، لأنه يمس حياة كل الناس دون تمييز .

ونحن نعرف أن بيوتاً إقطاعيّة عدّة قد تداولت الحكم في " جبل عامل " . ومع ذلك فإن اسم (بشارة) هو الوحيد الذي التصق به ذلك الالتصاق الثابت المحكم الذي وصفناه . والذي كان بمبادرة شعبية خالصة ولا ريب . إن المؤرّخ المتمرّس ، وكاتب السيرة الخبير ، يعرف جيّداً أن الناس قد يسجلون انطباعاتهم عن الأحداث والأشخاص بطريقة لا تُفصح بسهولة عن سرّ الموقع الذي احتلته في وجدانهم . وليس عليه إلا أ ن يمضي في التحليل والتركيب ، واضعاً نصب عينيه أن ها هنا لسرّاً . فإذا وُفّق إلى تركيب كافّة ، أو على الأقل الضروري والأساسي ، من عناصر الموضوع ، تجلّى أمامه السرّ . وهذه لحظة فرح كبير للمؤرّخ الإنساني ، لأنها تُتيح له أ ن يُطلّ على وجدان الناس في لحظة دقيقة . فيرى كيف يتصرّف العقل الجمعي بطريقة حازمة ، وكأنه يقول ، هوذا ما أريد ، وهذا ما يجب أن يكون .

وجدير بنا الآن أن نقول ، إن اسم " بلاد بشارة " كان معروفاً متداولاً بين الناس في حياة الأمير حسام الدين بشارة (أحمد الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب / 213) . وهذا يفيدنا تاريخ انتشار الاسم بين مختلف طبقات الناس ، ويدل على أمرين هامين :

ـ الأول : إن الاسم أُطلق وكان متداولاً قبل نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . لأن الأمير حسام الدين توفي في السنة 598 هـ / 12.1 م كما عرفنا .

ـ الثاني : إنه يتصل بالأمير حسام الدين بشارة شخصياً ، وليس بعائلته التي توالى أبناؤها على حكم بعض مناطق " جبل عامل " حتى نهاية العهد المملوكي .

وتفسير ذلك ، فيما نرى ، يكمن في التاريخ العاملي حتى حسام الدين . فلقد عرفنا ممّا فات ، أن " جبل عامل " كان من الوجهة السكّانيّة تجمّعاً ظرفياً لمن أجبرتهم الحرب على ترك أوطانهم واللجوء إليه . وأن هؤلاء النازحين ما أ ن استقرّ بهم المقام في منزلهم الجديد ، حتى لحق بهم الاحتلال الصليبي وفرض سلطانه عليهم . واستمرّ الوضع على هذه الحال مدّة تزيد قليلاً على الثمانية عقود . وُلدت في أثنائها أجيال وماتت أجيال .

وجاء حسام الدين ، فكان منه أن نظّم نخبة من شعبه وقادهم في ميادين الجهاد ، وفي المساهمة في تحرير أرضهم . ثم كان أ ول سلطة سياسيّة وطنيّة عرفها أولئك الناس ، الذين لم يعرفوا من قبل سلطة غير سلطة الاحتلال . وفي ظلّ هذا التبدّل الأساسي الذي نال حياة أولئك الناس جرى ، فيما نحسب ، إطلاق اسم " بلاد بشارة " على " جبل عامل " .

المغزى الكبير في الانتقال من " جبل عامل " إلى " بلاد بشارة " أنه حصل في ظل متغيرين أساسيين :

أولهما : المتغيّر السكّاني . الذي انتهى إلى إعمار أرضه بالنازحين إليه من مختلف بقاع " وادي الأردنّ " و " فلسطين " . وقد غدا الآن متغيراً تاريخيّاً .

ثانيهما : المتغيّر السياسي ، المتمثّل في أول سُلطة سياسيّة محلّيّة وطنيّة قامت على أرضه ، بعد سنوات الاحتلال الطويلة .

بالنسبة إلى الناس العاديين ، فإن اسم " جبل عامل " قد غدا الآن اسماً مقطوعاً تماماً . فقد كل مبرراته . بعد أن خلف على الأرض قوم لا علاقة لهم بقبيلة عاملة . الراهن الآن هو قيام أول سُلطة سياسيّة وطنيّة على أرضه . وهكذا انتقل الناس بكل بساطة إلى الاسم الأصدق تمثيلاً للواقع السكّاني ـ السياسي الجديد . فانتزعوا الاسم من أكثر العناوين وضوحاً ، أي من اسم البطل الذي كانت أعماله وراء كل تطوّر إيجابي في حياة الناس .

ونحن إذ نمضي بالتأمل في هذه المبادرة الشعبيّة النادرة ، يمكن أن نُضيف أنها لم تكن موجّهة بالدرجة الأولى إلى تكريم البطل ، بل قبلُ إلى ما هو بمثابة إعلان ولادة وطن. جرى تكريسها بإطلاق اسم جديد عليه . هنا تبدو عبقريّة العقل الجمعي للجمهور ، إذ لجأ إلى هذه الطريقة ذات الصفة الدراميّة في التعبير عن مكنونه .

الـخـتـــــام

كان هذا البحث ، الذي يمكن وصفه بأنه جود من الموجود ، مغامرة خضناها في الجانب غير المرئي من تاريخ (نا) . حجبته عنّا رؤية المؤرّخ السلطوي ، الذي بسط سلطانه على الكتابة التاريخيّة . وما زال يفرض علينا منظوره الخاص للتاريخ ، ويراقبنا بعينيه التي أكلها التراب .

باستثناء نُتَف قليلة من أخبار بطل هذه الدراسة ، الأمير حسام الدين بشارة العاملي ، اضطرّ المؤرّخ اضطراراً إلى تمريرها ، لا لشئ إلا لأنها تتقاطع مع أخبار سادته ، ـ فإننا في أكثر أجزاء البحث أهميّة اضطررنا إلى اللجوء إلى عقد تقاطعات بين بعض النصوص المتعلّقة مباشرة بالأمير حسام الدين ، وبين معلوماتنا عن التشكيلات العسكريّة في الجيش العامل تحت راية صلاح الدين ، لكي نصِل عبر ذلك إلى تصوّر لدور حسام الدين في الانتصارات المجيدة على الصليبيين . منها ، بل على رأسها ، معركة " حِطّين " الفاصلة . أمّا فيما يخصّ موقعه من تاريخ " جبل عامل ، فإننا ، بسبب غياب هذه البقعة ذات الامتياز عن المكتبة التاريخيّة ، قد اضطررنا أيضاً إلى بناء البحث على مغزى المبادرة الشعبيّة من إطلاق اسمه " بلاد بشارة " على " جبل عامل " ، وما في هذا من دلالة .

أعتقد أننا ، مع أخذ الصعوبات الحقيقيّة التي عاقت البحث بعين الاعتبار ، فإننا هاهنا قد وصلنا إلى نتائج في غاية الأهميّة ، وفي غاية الجِدّة والطرافة . لقد نجحنا في كتابة قصّة متماسكة لبروز حسام الدين ، ولدوره بطلاً مجهولاً في الجهاد ضد الاحتلال الصليبي . وأيضاً له بوصفه أول سلطة وطنيّة على " جبل عامل " . وهذه نقطة يمكن ، بل يجب ، اعتبارها منطلق تاريخه . وهذه ، والفضل لله تعالى ، نتائج غير مسبوقة.

والحمد لله رب العالمين

الفهـرســــت

الموضوع	الصفحة
المقدمـة..	3
خلفيّة تاريخيّـة..	11
الســـيرة...	16 – 41
المنبت والعائلة......................................	17
الإنسـان ومرابعه....................................	22 – 41
أ ـ أول ذكر لحسام الدين..........................	22
بـ ـ محرراً وأميراً على جبل عامل	24
جـ ـ ..... وأميراً على عكّـا	28
د ـ في تبنيـن......................................	32
هـ ـ حسام الدين في مأزق حرب الوراثة	36
الأمير حسـام الدين في معركة حطّين................................	43
موقع الأمير حسام الدين في تاريخ جبل عامل......................	53
الــختـــام..	63